



من برج بابل إلى برجي نيويورك

ما أرادته اللغة حطمتها اللغات

سعد سلوم

، وحد العصر وسلطة الكلمات

ربما من المثير للإستغراب أن ينفي رجل المستشار الولادي - الذي لا يمكن أن تُنكره اللغة - الطابع الطبقي عن اللغة. إلا أنه مثل قادة ذلك الزمان العالير كان من جلادي وضحايا الصراع المرير بين "الرأسمالية" و"الاشتراكية" هاتين الكلمتين اللتين تنازعتا القرن العشرين، وانتهت الممارسة في فحافة بانتصار ادحاماً!

هذا هي الكلمة دائمة، منهاجية بكلماتها تختصر روح العصر . فكيف يمكن تحويل تاريخ القرن الماضي وتأمل اندفاعاته الى رحم الالفية الثالثة من دون التوقف عند كلمات مثل: **الفاشية، النازية، الاشتراكية، الرأسمالية،** العولمة، الارهاب. الى حد تصبح فيه دراسة تاريخ استخدام الكلمة من هذه الكلمات، معيناً للدراسة اتجاه المصالح المتنافرة والاهواء الایديولوجية المتضاربة، ومستوى التضليل باتجاه تحقيق غايات معينة، بدل ان تأتي الكلمة امبيريحاً هو ذاته تاريخاً للنحوamerة، وفي وقت لم تعد فيه اللغة حارسة العقل بل اضحت قيداً شاهداً.

ولا يحق لنا في هذا المقام ان نشتكي، لأن الوجه المنطقى للغة يتراجع في لغة السياسة الى مرتبة ثانوية. ولللغة في ذلك المقام معنى ميداني كادة لنهائية وتحقيق نشاطات مقصودة وتحتول الى موضوع للتضليل السياسي والادبى وليونغ وتنزع الى ثانية هدف السياسة في توظيف المجتمع وتحقيق السيطرة على نظام الاذكار . ويأتي الدور لخبراء الكلمة في هذا السياق لتغليف المعاني والاعراض الذئنية بصياغة البلاط البربرية . وهذا تقلب وظيفة اللغة بين حدى "الابلاغ- الاخفاء" ، فبلغتها لا تبلغ، وفاصاحتها لا تتصح، إلا بقدر ما تبغي تضليل الاحساس وتشويه الحقيقة. غير أن حصر حقيقة "الكلمة/العصر" - تحديد مختلف المعاني التي مرت بها الكلمة وارتبطت بها - يندرج ضمن تحديد تاريخي لسيطرة اتجاه ايديولوجي على مسار الفكر وال بتاريخ، كما ان هيئارها بات رمزا على اندماج اذن وذمة.

يقدّمنا الفضول إلى تتبع جهد جورج أورويل في روايته "مزرعة الحيوانات" وـ"1984" وكتابه "السياسة واللغة الأكاديمية" الذي يحوي أمثلة باتت كلاسيكية. إلا أننا عندما نجد خطيب الرفع لا نستطيع تخليصه من الطابع التقني للغة المعالجة وقد لا يعيها، كوننا نستنطاعي مع أهم التمهيدات المطبّعات اللغة التي تتصدّى لخلافات الرفع لغوية

روم العصر وسقمه للستات

استيقظت ذات صباح وسبل الفراغ الإلبيض لغرقني
الرطبة. تفتحت مسامات عقلي داخل رحم عالم صلب
والآخرين. وقبل ان أسلم قياد نفسي الى فوضى الحواس
العاصفة ضجيج الاخبار وضباب الفضائيات وثرة
الرصاص ودوي العبوات الناسفة ورعب السيارات
المغفخة ولقطق في السوق، بل وقبل ان استأعمال عن
احوال الطلاق القيوس، اي عن عدد القabilات التي يحملها
في دائره من الصمم، خراساء ومنتصلة عن حقيقة ما
يحدث.

لماذا العالم اخر من---الرغم من كل هذا الضجيج والثرثرة واللقط؟ اي سلاح يتيقى لنا للدفاع عن دولتنا، إذا ما تسررت اللغة مسكن كينونتنا من بين اصحابنا وذابت؟ ما هو هر ذئب الذي يتقدّم ويدرس إذا ما تحول مسكن الكينونة الى جحيمها، وانهارت اللغة مع انهيار عالمنا او مُنعت اهواراته في تمرّساتها وتصدّعها؟ لماذا يتيقى لنا اذا تلاشت الكلمات تعبير عن اختفاء وتلاشي الواقع؟

عken الصوت الداخلي استله على مرآة نفسى قبل ان
ادوس عتبة الصحو الخطرة ليلقى بي في عالم اليقظة
الكايوسي .

قبل سبعين عاماً اجتاز سؤال خطير مثال عنترة الكرملين ليوقظ القيسير الاحمر من نومه (هل تستحق النساء بناء فوقها فائماً على بناء تحتي؟) ففتح الرفيق القائد يوسف ستالين يده الجبار وأجابت حركة أصدقاء المفترضة بأن ذلك غير صحيح، ذلك ان اللغة غير متولدة من هذا البنية التحتية او ذاك، قد يكتبوا اوراً جديداً، في قلب مجتمع، بل هي تتولد من كل سير تاريقي في المجتمع ومن تاريخ الأبيات التحتية لكل العصوبار. فهو ليس من منع طبقة معينة، بل منع المجتمع كله ونتاج جهود مئات الاجيال، وقد وجده لا سد حاجات طفولة معينة بـ لسد حاجات المجتمع كله.



مئالین



اور ویل

"صناعة الرضا والقبول" بلغة تشو مسكي. وقد بين الأخير، في معرض رده على سؤال وجهه ديفيد بارساميان، حول المدى الذي يقوم بالتحكم باللغة، بصدق وصياغة فيها وإدراكنا للحقيقة، إن معظم المصطلحات المستخدمة اليوم تحتوي على معانٍ فنية بحيث تكون بعيدة جداً عن معانٍها الحقيقية، وحتى احياناً معارضة لها. ومثال ذلك "المصالحة الوطنية" التي من المفترض أنها تعود لمصلحة السكان أو الشعب ككل، ولكن إذا نظرت بأمعان تجد أن المقصود بها أنها من ضمن مصالح جماعة صغيرة من المهيمنة، التي تكون قادرة على السيطرة على المصادر التي تتمكنها من السيطرة على الدولة، وبالاخص تلك النخب المتعادة والمتمرزة في الحكم.(5)

والي ذلك نتهيأ بذلك فروم في كتابه "الخوف من الحرية" إلى أن الكلمات لم تستخدم لكي تغنى الحقيقة أكثر مما تستخدم الان، خفياناً حفاظاً على الآلة، فالتوارىخ العسكري يغطي بأنه دفاع ضد الهجوم وغزو وام صغيره يتم باسم "حلف الصداقة" والقهر الوحشي يمارس باسم "الاشتراكية الوطنية".(6)

بل ان صوت روجيه غارودي اخذ يصدح بالشكوى في كتابه "داء الى الاحياء" من كون الاقاظ باتت تتمكن تفاصح حضاراتنا الراهة، فالتوازن القائم على الرعب النووي يسمى "السلام" اما خيانة الشعوب فتدفع "الامن الوطنى" وعف الاضطمة يسمى "الظلم" وقانون شرعيه الغاب يدعى "اللبرالية" وكل هذه الانحرافات تسمى "تقدمًا".

ويتابع غارودي في كتابه "كيف تصنع المستقبل" "تقدماً" على التراف اعمى يؤدي الى تدمير الانسان وطبيعته. ونطق كلمة "يمقر اطية" على اشنع قطعية عرقها التاريخ بين من يمكنون ومن لا يمكنون. ونطق كلمة "حرية" على نظام سمح - بذرية التبادل وحرية السوق لأنك الأكثر قوة ان يفرضوا الديكتاتورية عبادة الإنسانية، تلك التي تنسح لهم بابتلاع الضففاء. ونطق كلمة "علومة" على القسم ينتهي بين الشمال والجنوب نابع من وحدة امبريالية وطبقية... القسم يدمي نوع هذه الحضارات ومنتجاتها المفرض (لاتفاق) الراغبين في التحكم بالكوكب. ونطق كلمة "تنمية" على نمو اقتصادي بلا ثابة... يفتح اي شيء سواء أكان مفيدة أو غير مفيدة كالسلحة والمخدرات وليس تنمية الامكانات البشرية الخلاقة للانسان.(7).

(نيست سياسية بالضرورة)، لبيان طرائق استخدام ووظيف الكلمات التي تتف适用 عن صورة صورنا، منطقين من الاحساس العام والعميق بأن كل زمان كلاته وانياباته وان الكلمات بقدر ما تختصر صورة العصر فلن تناقضها تفاصيل الكيفية التي يصنع بها السادسة مدههم وتضع فيها القوة سلطتها في انتصار وسيادة مصطلح ملائم، وتعزيز عالم بوليسى تسمى فيه الحرب "سلاماً" ويتحول فيه السلام الى "حرب". وهكذا تستحق "اللغة" امتياز وصف الشاعر الالماني هدرين بكونها اخطر النعم.

نصر أوروبي ومهام الهندسة التاريخية

"نصر أوروبي" هو الاسم الذي يطلقه نعوم تشو مسكي على زماننا، وذلك في معرض إشارة الى مهمه "الهندسة التاريخية" وهي مهمة تتضطلع بها صناعة العلاقات العامة الاميريكية، وتعنى: تصميم الحقائق التاريخية لكي تخدم سياسة الدولة. فهذا بالضبط ما كشفه فكر أوروپيل، كما أنه من الامهمية يمكن ابتكار اساليب (صناعة المواقف) او الهندسة الموافقة "صناعة الرضا والقبول" من قبل النخبة السياسية المسيطرة في سبيل خلق نظام من السيطرة على ما يفكرون به الشعب، وضمان لا يتحقق صوت الشعب المسموع في ظل الديمقراطية إلا بالأشياء المناسبة؟! هو ما عرف بـ"السيطرة على الفكر" بلغة أوروپيل نفسه.(8)

وإذا كان هدف السياسة الامريكي، ليس اكتساب مقولات صحيحة حول وقائع سياسية، بل دفع البشر الى نمط سلوكي معيين ولغة السياسة لا تخدم ايجاد صياغة لغوية لمقولات صحيحة، بل تعمل للتاثير في وعي من توجه اليهم دفهم الى نمط سلوكى معين أو لترجمة احتلالات حدوtheir، او يعني اخر فان هدف لغة السياسة الوصول الى (المواقف على تقطيم معين للمجتمع).(3)

وبهذا الصدد لاحظ لتطويع غرامشي انه "في كل مرة تظهر فيها قضية اللغة بشكل أو ساخر، يظهر الدليل على أن سلسلة من المشاكل الأخرى أخذت تفرض نفسها، مثل: تكون الطبقة الحاكمة، توسعها، الحاجة الى موازنة أو تقوية الروابط وأشدتها خصوصية بين تلك الطبقة الحاكمة والجماهير الشعبية وإعادة تقطيم السيطرة الثقافية"(4).

ولخدمة ذلك الغرض تجيء لغة السياسة، لخدم ايجاد صياغات لغوية ت العمل في التاثير في وعي من توجه اليهم



غرامشي



غارودي

المعلومات ليست جديدة، ولكن الجديد نسبياً إن الرأي العام والخاص بات يقبل بصورة عامة هذه الأكاذيب وإن بشاعة مضمونها لم تعد ظاهرة لللاظفاري (9). كما يحاول ماركرز أن بين أن تغيير مثل (القبيلة الظريفة) والشعارات النزوية (اللامؤدية) ليست سوى اختلافات متطرفة لأسلوب دارج. لذا لم يكن غريباً اتنا سمعنا على صعيد الخطاب القانوني الصادر عن الأمم المتحدة في نهاية التسعينيات من القرن الماضي الترويج لـ(عقوبات ذكية) وأشار الخطاب السياسي إلى تدمير الأمل بـ(حرب نظرية). ومنذ أحداث 11 أيلول بات بعض التعبير الدارج سقراً وترتب في حادثاته، كوصف الأسلحة الاصحاعية بـ(قاذف القذرة) وهو تعبير يحتوي على تضمين مضلل في أن بعض الأصناف الأخرى من السلاح النووي "نظرية"!!

ويذهب تشومسكي إلى أن الاحتياط اللغوي الذي تقطوي عليه صياغة هذه المصطلحات هو وظيفة المؤسسات الأيديولوجية كوسائل الإعلام، المدارس، الخ... وذلك لمنع الشعب من فهم الحقيقة، لأن الناس إذا ما فهوموا قانون الممكن أن لا يستسيغوها أو يجدها، ومن الممكن أن يعملوا على تغييرها. وسيؤدي هذا أو يؤثر على النخب المتقدمة والمسيطرة (10).

إلهذا كان رولان ديشانتينا من ان انغرق اللغة بات شاملة محكماً، وأن اللغة الفنية والتعسفية ذاتعة الاستقرار في العالم المعاصر وهي تميز جميع الأنظمة السلطوية؟ ولا يرى ماركرز في مدار الحضارة الصناعية مجتمعًا غير خاضع لنظام سلطوي. فالأنظمة المختلفة ما عادت تفترق اليوم من حيث انماط الحياة ولكنها تفترق وتتنافى من حيث استخدامها لتقنيات مختلفة في الرقابة والتحكم والتلاعب، واللغة تعكس الرقابات، ولكنها تصعب بوجه خاص هي نفسها "ادارة رقمية" في الوقت الذي لا تتفق فيه "أولم" وإنما مجرد "معلومات" وفي الوقت الذي تتجه فيه إلى "الاحتياط" لا إلى "طاعة"، إلى "الحاقرية" لا إلى "الخضوع". يرسم ماركرز ملامح عالم مرعب وخافق موسوم من أقصاه إلى أقصاه بسمات الأشكال النوعية من المسيطرة والتقطيم والتحكم والتلاعب التي يخضع إليها أبناء المجتمع. ولأنما خالل أسلوب الحياة وطريقة العيش تتجلى تبعية الناس لارباب العمل، ولمحترفي السياسة، ولمهنهم، ولغير أنهم الذين ينطقونهم اللغة التي يتكلمون بها. ماركرز يرى أيضاً أن تقلبات اللغة خطها الموازي في تقلبات السلوك السياسي: فيبيع جهاز

كما ظل الاحتياط من اتفاقاً لاستعمال كلمات مثل (العمل)، مما يمكن مفارقة رئيسة: فـ(العمل) يضم معه أولئك الذي يكتون ويتبعون ويتحملون السلام، وأولئك الذين يشعرون بالمتنة من وراءه من دون أن يكون عليهم التزام أو شعور به. إن (العمل) صفت ما هو أجيري، وما هو مصدر المكانة، والامتيازات التي تتحقق من ورائها. ولهذا فإن الاحتياط واضح في استخدام الكلمة نفسها للتعبير عن كلا الطرفين (8).

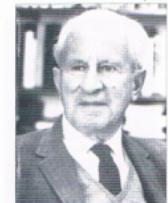
والامر لا يقتصر على استخدام الكلمات لممارسة الاحتياط ولخفاء الحقيقة أو تشويهها، بل يتغير جميع السلوكيات المتأثرة بالمفهوم الحقيقي للكلمة المستعملة. فتميل الكلمة لتفغيل المفهوم والسيطرة عليه وتوظيفه لذر الرماد في العيون. أو على حد تعبير هربرت ماركرز "يميل المفهوم للانتصارات من قبل الكلمة". لذا نجد أن الأمر كان نمطاً في الخطاب السياسي والإعلامي الراهن ان يشاع انه باسم مذهب (الحربية)، صارت الحرب على الإرهاب والحروب الاستيقافية الوقائية هي المفاهيم الليبية الجديدة للسلام العالمي. كذلك أصبح تغيير انظمة الحكم الدكتاتورية بالقوة العسكرية هو الطريق الذي يجب ان تمر به عملية دمقرطة العالم (الموجة الرابعة للديمقراطية)، وقد ذهب الناقد الأميركي مايكل بارنطي في كتابه (فكرة الحقيقة اInventing Reality) ان تحديد من هو ارهابي ومن ليس ارهابياً أمر تقرره سياسة وسيلة الاعلام التي تتصف. فحرب العصابات الشعبية تصفعها وسائل الاعلام الغربية عادة بالازهابية، في حين يوصف المرتزقة في الغولا وبنكاراغوا وموزمبيق من توظفهم (CIA) بالثوار. وهذه الوسائل تتحت عمل الدولة اليسارية التي تدافع عن نفسها في وجه هؤلاء (الثوار) بارهاب الدولة ولا تستعمل هذه التعت اما تقوم به الولايات المتحدة من كرت للحركات التحررية الشعبية في العديد من الدول.

عالم الانشاء المغلق

في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" يضرب لنا ماركرز ببعض الأمثلة على المعلومات اللغوية والسياسية الدارجة، إذ يقول: عندما يسمى الحزب السياسي العامل على تطوير الرأسمالية الدفاع عنها جزءاً (اشتراكي) وعندما تسمى الحكومة المستبدة (ديمقراطية) وعندما تسمى الانتخابات المزورة انتخابات (حرة) فهذه



فروم



ماركرز

كانوا يصنون تاريخهم ويشيدون حضارتهم منذ آلاف السنين، وعالمهم ليس جديداً، بل هو قد تم عاشوا فيه قبل ظهور السيد المكتشف" بمئات القرن. وهذا المصطلح يخفي أن الإنسان الغربي جاء "في صيغة التجار" وهو يخفي حقية "المحارب" فـ"فراز الأرض" ونهبها ودمرها وأبدى شعوبها واستبدلها.

وذلك مصطلح "رجل أوروبا" وهو مصطلح شائع تلقاه بشفق واحذلان في عجمنا التحليلي، يحمل ذات مرتبطة شرطياً بصورة رجل يختبر على فرائش الموت "الدولة العثمانية" مما يثير فيها مشاعر لبلية اقررت به، وبالحقيقة "إذا لم أقل الاحتقار" وتناغل عن ان الدولة العثمانية كانت تحمي شعوبها على الرغم من ضعفها وفسادها من الرجل الاستعماري الذي داس العالم كله بقدسيه. كما يغفل المصطلح عن أن رجل أوروبا "مُ" يكن أوروبا بل كان يقف على رأس الشرقي الإسلامي قائدًا وزعيمًا. وأن الهدف من ذلك هو ان يعطي على الرجل الآخر "رجل أوروبا النهم" الذي كان يبيد سكان افريقيا آنذاك "بيده" بعد ان تحقق على سكان الاميركيتين الأصليين وبعد ان مها سكان استراليا وبنيزيلندا وكان يقوم في الوقت ذاته باستعباد سكان آسيا ويخرس حرباً ضاربة لتسويق الآفيون في الصين لشن تercem الغربي والغبيوبة العالمية على ارضه.(13) فمن الرجل المريض حقاً !!

كما أن بعض المصطلحات تعكس الغرور والتحيز الناجم عن التفكير حول الذات، مثل مصطلح "الحرب العالمية الأولى" و"الحرب العالمية الثانية"، وهاتان العبارتان كاتتا "عالموتيزن" من وجهة نظر الإنسان الأوروبي فحسب، الذي كان يظن أن أوروبا هي العالم "اما ما عدا ذلك فهو سوق ومستعمرات". ونفس الاستخدام يتتوفر في صك مصطلح "الرأي العام العالمي" وهو ما يعني في واقع الامر "الرأي العام العربي" (14).

ويعين ان تضييف الى ذلك مصطلح "المجتمع الدولي" الذي كان يعني في بداية الامر "المجتمع الأوروبي" تحديداً و"القانون الدولي" الذي كان يشير الى القانون الذي ينظم العلاقة بين امم هذا المجتمع. ومصطلح "النظام العالمي الجديد" الذي بالمعنى نفسه هو النظام العالمي القديم نفسه بمصطلحاته المترتبة وامراضه الخبيثة وفوسه للهيمنة والاستغلال، وعندما لم يجد المصطلح فعلا ولم يبنق نظام عالمي "جديد" حقاً، ظفا على السطح مصطلح "العلومة" المتألق، وتبعد الصراع

تلفزيوني يفتح للمرء ان يفرج عن نفسه داخل مخبأ ذري وتقديم المرشحين السياسيين على شاشة التلفزيون انما يعنيان في الواقع الجم او الخلط بين السياسة والاعمال او واقعات الفراغ (11). ماركوز يعنيه انا منطق هذا العالم الذي في وسعه الاستغناء عن المنطق، حالم يلعب مع التكبر وسيطر تكونولوجيا على الفكر المادي، مما يفسح المجال امام وجود عالم للانشاء تصالح فيه المتعارضات .

اللغة في جنازة الحقيقة

قال أحد الفلسفه: الحقيقة قسوة تاريخية يوك ووجودها، أكثر ما يؤكد، النفاق الذي يبيده أحدواها حاليها من جهة، والمساعي التي يبذلونها للظهور بمظهر المداعع عنها من جهة أخرى. هذا القول يمكن تطبيقه على اللغة. إذ تؤخذ سلسلة من الكلمات، ووصلت في سياق التطور التاريخي إلى مكانة لا تقدر حتى أعلى القوى السياسية على رفضها وتشويبها، من دون ان تتحقق الضرر بمساعيها نفسها. من هذه الكلمات "الحرية" و"السلام" و"الديمقراطية". ولكن مثل هذه الكلمات التي لا يمكن التخلص منها، يمكن تحويل معناها على نحو يحقق اعداد الرجال والقلوب لاعتناق سلوك ينافي تماماً معناها، وتسرّع المشاعر الأخجية بالمرتبطة بهذه الكلمات بهدف تتحقق صالح الخيبة المسيطرة. كما يمكن مثل مثل هذه الكلمات باقتباسها وإصلاح تقويم ذي طابع سليبي بها "قرنها يعني سلي". أو محاولة إنقاذه تأثيرها بالإبقاء على وظيفتها الوصفية من دون تغيير، واضافة قيمة شعورية تحرير لها. وهذا ما يمكن احداته بآدوات خارجية بحثة مثل وضع كلمة "ما يسمى" أمامها(12). في عالم الصوت والظل سرعان ما تصبح الكلمات سلاحاً للنمار الشامل بتخريب قدرة البشر على التفكير السليم وفابروساً لنشر حمى تحويل البشر إلى اثناء وتشويه الحقيقة وشن فعلتها.

كما صكت العديد من المصطلحات بتحيز واضح وبقصد إخفاء الحقيقة. على سبيل المثال مصطلح "عصر الاكتشافات" وهو مصطلح يعني ان العالم كان في حالة غياب ينتظر الانسان الايض الاكتشاف. او يعني ان شخصاً ما قد اكتشف ارضًا جديدة "العالم الجديد" فيها حيوانات ونباتات وشجر، لكن صيغة المصطلح تسقط البشر الذين كانوا يعيشون في هذا "العالم الجديد" ولم يكن الامر اكتشافاً بالنسبة اليهم، فقد



شومسكي



بارت

هجمات أيلول مباشرة لاختراق الضباب الكثيف الذي يحيط بهذا المصطلح غير عقد مؤتمر لتحديد وهو ما قد يحدد العمل ازاءه ويقيض المسمى لشن الحرب الشاملة التي رفقت اطلاقه على نuo لم يسبق له مثيل، لاسيما وأن تعريف هذا المصطلح بالطريقة هذه قد يغطي امير اطэр عصرنا من تحمل الناتج المرهوة لاعماله ويحيمه من الانتقاد حين يتم تشخيص جميع الاعمال الدمرة بوصفها ردا على الاعمال الارهابية مما يقلب المفهومات السائدة والاعراف الدولية المستقرة والمرجعيات القانونية المعترف بها، فقد تم اقرار مبدأ "ان القوءة" هذه تنتقد على باخرة المصطلح التقى المائع لنتائج اعماله دلائل من معهية "قوء القانون". والتعريف او التحديد الاميركي "البوليسى" وليس "القانوني" لامير اطэр يجعل الاعمال الاعتدادية قابلة لأن تصنف ضمن الاعمال الاجرامية التي تستحق العقاب وهو ما يتناقض مع القاعدة القانونية المعروفة "لا جريمة او عقوبة الا يصن" وهو ما يفسر التأكيد على مبدأ "الضررية الوقائية" والذي يعني بهذه الصدد المعنية المسقبة للتهم قبل شروعه وبالعمل ولمجرد التخمين وتفسير الافتراضي ثوابها، مما يعني العقاب على النية وليس على العمل وهو مما دفع خروجا صريحا على مبادى القانون الثابتة وإحالا لاعرف جديدة من جمعيتها الوحيدة هي الممارسة والتفسير الاميركيين للحالة المعنية(16).

الاستراتيجية اللغوية الاستطرادية

يكشف الكاتبان الاميركيان "ستيفن هالير وجوناثان كلارك" الحيلة الكبيرة الخادعة التي استخدماها المحافظون الحدد في الولايات المتحدة لصياغة "خطاب سياسي" يكيف الرأي العام بحيث يربط المهموم العالمي على القاعدة وبالهجوم الارضي على العراق عن طريق ما يسميه الكاتبان "العرض الاستطرادي للواقع" وقد وصفت هذه الظاهرة بأنها إنباتة للأطэр وكمنت القسوة الرئاسية الاميركية في القدرة على "تطوير ونشر الأطэр و التفسيرات التي تقتلها الصحافة" والرأي العام وتصبب نتيجة لذلك العدسات التي لا يدرك وجودها لكنها مع ذلك تشكل كيفية تكثير الناس في الشؤون السياسية"(17).

ويؤكد "البناء الاستطرادي للواقع" على ان أحد بحث

بين مصطلحي "العلوم" و"الامركه" وقد عكس الاخير الاحسان المتزايد بسيطرة نخبة سياسية محدودة على مستقبل النظام العالمي.

لغة الاميراطور وأذدواجية المعايير

يأخذ شومسكي عنوان كتابه (اقاصرة وأباطرة) من قصة طرفة ذكرها القديس أو غسطين في كتابه (مدينة الله) حيث تدور القصة عن قرصان أسره الاسكندر الاعظم و سأله: كيف تجرب على الاعتداء على الناس في البحر؟ فأجاب القرصان: وكيف تجرب انت على الاعتداء على العالم بأسره؟ إلا انى أقوم بذلك بسفينة صغيرة فحسب، أدعى لها، أنا انت، ولأنك تقو ب نفس الشيء وباسطول كبير، فيدعوك امير اطэр !!؟

يرى شومسكي أن هذه القصة التموزجية تلقي الضوء على معنى مفهوم (الاز هاب الدولى) في الاستخدام الغربي المعاصر والذي يتميز بازدواجية المعايير: ذلك ان كلمة ارهاب على النحو الذي يستخدمه الاميراطور والحاشية التي تدين له بالولاء تشير الى العمل الارهابي الذي يرتكب من الجانب الآخر وليس من جانبنا. ومن خلال ذلك يفضح شومسكي ازدواجية المعايير التي تتضمن في لغة الاميراطور . فالمعايير التي تطبق على الاميراطور وبالاطلاق فريدة من نوعها من ناحيتين وتفيق الصلة ببعضهما البعض:

1- ان الاعمال الارهابية للاميراطور لا تدخل في ما يسمى اعمال الارهاب.

2- ينظر الى الاعمال الارهابية الموجهة الى الاميراطور بجدية بالغة حتى لو تطلب الامر اللجوء الى العنف فان عملية ارهابية مماثلة وربما اكثر خطورة توجه ضد الاخرين انما لا تستحق

الاقتنام(15). وبعد احداث 11 ايلول اكتسبت لغة الاميراطور زخما جديدا في اشارتها لوحش مصطلح "الارهاب" علىخلفية تدمير البرجين التوأميين في نيويورك.

وحش المصطلح يبنى من رماد البرجين وعلى انقضاض البرجين ومن رمادهما انبث بقى الدمار مصطلح "الارهاب" وسرعان ما تم تعريف المصطلح واستخدامه على نطاق واسع الى حد بات فيه مصطلحا مانعا يمكن الصاقه بساية جهة تعرقلصال العلية الاميراطور عصرنا. لذا جاءت الدعوات الدولية بعد



هالر



كلارك

الدول المارقة واستراتيجية التخويم البلاجي

كما تمت تحت مصطلح "الدول المارقة" التي جمعت تحت عنوانها كل من إيران والعراق ولبنان وسوريا وكوريا الشمالية وكوبا، وهي قائمة مفتوحة للنهايات وقابلة لحمل أي دولة أخرى تراها أميركا تهدد مصالحها مستقبلاً، ثم ما لبثت لغة الإمبراطور ^٥ أن استعارت، من لغة الرئيس السابق ريتشارد مصطلحه البتدرع لوصف الاتحاد السوفيتي بوصفه "أميراطورية الشر" وطلقت "محور الشر" على ثلاثة دول منقحة من الدول المارقة وهي (العراق وإيران وكوريا الشمالية) على الرغم من صعوبة الربط بين هذه الدول المتصلبة في مواقعها. وقد قدم جاك دريدا إسهاماً متميزاً في تحليل مصطلح "الدول المارقة" الذي قدم كوصفت لهذه الدول في ضوء معطى كون "الدول المارقة هي الدولة التي تتهمها الولايات المتحدة بأنها كذلك". فمن خلال تحليل منطق فهم السيادة يلاحظ دريداً أن هذا المنطق من شأنه أن يسرهن على نحو سباق على أن الدول المخربة في إعلان الحرب على الدول المارقة هي نفسها في سيادتها الأكثر شرعية "دول مارقة" متعمقة في سلطانها. ويحاول دريداً أن يضع حدوداً نهائية لمارق بحصر حقوقها. وقد بدا واضحاً له أنه من انتصار برجمي مركز التجارة العالمي انهارت كل العدة المنطقية والدلالية والبلاغية والحقوقية والسياسية التي كانت تتجلل التهديد المطعن بأي حال بالدول المارقة مفيداً وذلة. الحال أن هذه الهجمات قد تم تخليها بالفعل على نحو يمكّن من ظهور عباره "الدولة المارقة" غير أنها كانت منسوية بالأسفل إلى دول بعيدها ومن ثم إلى قوى منظمة مستقرة معروفة يمكن الاشارة إليها وتحديد موقعها الجغرافي. غير أن الخطر الحالي لا يمكن احتسواه إن لم يكن صداراً عن دولة قائمة أو حتى تحتمله يمكن تعويتها بدولة مارقة. وهذا أمر من شأنه أن يبطل ويسخف كل الجهود البلاغية لتبرير عباره حرب.

يصف دريداً الأطروحة التي تقول: إن الحرب ضد الارهاب العالمي يجب أن تستهدف دولاً محددة كانت تقدم دعماً أو ملذاً للارهاب أو تموي الإرهابيين "دول مارقة". تكونها ضرباً من العقلنة، هذه انكار الرعب حيال الواقع ان التهديد المطلق لم يعد مكتناً ان يصدر او يبقى تحت سيطرة اي دولة من الدول او اي شكل او

الوظائف الأساسية للغة هي توفير إطار مفاهيمي مدرك بالعقل. ولا يعُد فيه الواقع الاجتماعي وال العلاقات والكيانات والمعتقدات مبنية التحديد وثابتة، بل ناشئة باللغة ومن خالها. وهكذا يتم بناء مفهوماتنا عن الاشياء والاهمية او المعنى الذي تحمله في حياتنا والقيمة التي نضفها إليها بصورة استطرادية - أي تعرّف بالكلمات - وتتغير مع طريقة تكلمنا عنها، وتؤثر كيفية بحث الواقع او تمثيله على ردود فعلنا وأحكامنا إلى حد كبير.

ولأن المحافظين الجدد يملكون الارجحية في البيت السياسي فقد عكست الوزارات المختلفة الراغبة بالاحتفاظ برضاه، خطه اللغوي، الذي أخذ يكتئف بمور الوقت. كما كان خطابهم "الذي يعكس سلطة المسؤولين الكبار في الحكومة" يضم إطاراً مرجعياً تحظى فيه التفسيرات الرسمية، مهمها بدت بعيدة الاختلاف، بالانبعاث من الشك، لاستبعاد الاستجابات الأخرى المعتمدة. ففي الأيام والاسبوع التي تلت احداث 11 أيلول تحولت الهمجات إلى "صراع مجرد". فقد كان "إعلان الحرب" الذي أطلقه الرئيس الأميركي بناء مجازياً غير أنه بطريقة تدعم استراتيجية المحافظين الجدد، ويرى الكاتبان إن اللغة لو استخدلت من قبل أن "الحرب" أعلنت علينا من قبل تسبعة عشر شاباً أو "مجموعة من الإرهابيين" لكن من الصعب تحقيق الهدف، إذا كانت الصياغة الرسمية تقول إن الحياة "اعلنت علينا". لقد تم جلبها "إلينا". لقد دشت علينا "إلينا". وقد شنت علينا "إلينا". وقد اكتسبت اللغة بصورة مطردة لترسيخ المفهولة بأن نمط الحياة الأميركي ينبع من تعرض للهجوم.

وقد اكتسبت الفورة المؤسساتية خلف هذا الخطاب أهمية كبيرة لأنها تعمل على جعل بعض روّى الواقع أكثر مصدقية أو مرجمعية من الروى الآخرى، من خلال الوصول إلى مشاهدي وسائل الاعلام والسلطة التي تتحلى المؤسسة بها. ولعل الارتباط بين السلطة والخطاب دوراً حاسماً في تحليل كيف تبني الإدارة الدعم لخططها الحربية. وتعد السلطة العالمية بهذه التأثير على ظاهرة مادية، فهي أيضاً القدرة على التأثير على تعریف المرء للواقع وجعله التعریف السادس. وهي القدرة على تحويل مجموعة محددة من التفسيرات الذاتية الى شيء يفهم على انه التفسير الموضوعي الوحيدة. وب بعد 11 أيلول أشار تعبير "محور الشر" الى بداية التصادع التدرجي الاستطرادي(18).



دريدا



ريغان

ما البديل؟ البديل هو ان نقول الحقيقة وهو ما يعادل الكلم بلغة غير مفهومة على حد تعبير شومسكي. يضعنا البديل على اعتاب التفكير في وحدة عالمنا المقسم على ذاته ويف genua الامل لتأمل مستقبل حضارة لن تقدم من دون حسان لغة واحدة تقدّم عربية هذا العالم الغريب الغامض على سفح سفح اللغات المتباينة.

الحسن والعربة "اللغة العالمية والحضارة العالمية"

جاء في الإصلاح الأول من سفر التكوير في العهد القديم ذكر برج باول وفرضي اللغات وتعددتها بما يدل على إدراك واضح لاختلاف اللغات بعضها عن البعض الآخر وللور بالبالغ الأهمية الذي تلعبه اللغات في تنسيق النشاط الجماعي لبني الإنسان وللحاجة الملحة إلى تفاهم على مستوى عالمي عن طريق اللغات.

إن قصة برج باول حيث كانت الشعوب تتكلم لغة واحدة، تتضمن دلالة مهمة إلى واقع طالما تطلع إليه كبار المفكرين الانسانيون وهو: أنه لم يتحدد الشعوب جميعاً فإنها تستطيع أن تتفقّق اعمالاً منضمة، وأن اللغة أداة تيسير للناس الوحدة والفهم المشترك. فهو نستطيع الانتهاء إلى لغة عالمية ينعم بها البشر وتسمى مسامحة فعالة من أجل تحقيق الوحدة بين الشعوب في ظل حضارة عالمية؟! من الممكن أن تفهم هذه اللغة فيدفع عجلة الحضارة العالمية الموحدة إن كان ترغب حقاً في تحقيق مثل هذه الحضارة؟

نقصد باللغة العالمية هنا ما فمه اللغوي البارز "ماريو باي" من أنها: لغة واحدة طبيعية أو مصنوعة، تتفاهم بها كل الشعوب إلى جانب لغاتها القومية الأصلية(20). وجهر منحة (الفوضى) وما بين التجاهيل والتغافل لعبية تبادل للذوار وحظلة لازداء الاقنة وبمراقة توأملي تفضحه حركة رقص خاطئة، وبدلاً من ان تصرخ "انكم ترقصون بشكل سيء" أو "انكم تدوسنون على أقدمنا" يتبعن علينا بقوه اللغة ان يتبين خطاب "كل الاشياء على ما يرام" او "ليس بالامكان احسن مما كان". يفصح العجز عن تغيير الواقع، الصمت والتواطؤ بين اللغة وعلم الظلال. كما يعبر احتفال النخبة المسطرة وهمنتها على حلبة الرقص ومناخ الحفلة، قدرتها الفائقة على تغيير جلدها، بكلمة عربها الفاضح ليسا لغريا مقولا. ذلك هو البعيد السياسي لتوظيف اللغة من أجل وضع ورقة التوت على عورات السلطة والسياسة.

"دولتي" كان. لذا وجب التمويه عبر هذا الاستقطاب الثنائي، وجب إخفاء حقيقة ان طاقت نزوية او اسلحة دمار شامل قد تنتج او يتم الحصول عليها في اماكن لا تتنبئ الى اية دولة ولا حتى الى دولة مارقة. في نظر دريدا، لم يعد هناك إلا سوى دول مارقة، ولم يعد هناك دول مارقة نظراً لكون المفهوم نفسه قد بلغ حده ونهائه حقيقتة، وهي النهاية التي لا مثيل لها في اتجاهها، إذ أنها ما عادت تسمية ملائمة. وسوف يعتمد من الان فصاعدا States Of (Concern) أي دول مقلقة: اي دول تثير القلق، لكنها ايضاً دول يجب ان تحظى بالاهتمام الذي تعالج حالتها بالمعنى الطبيعي والمعنى العدلي(19).

زمن الانهيارات الكبرى

مع انفجار البرجين التوأمرين في نيويورك انهارت اللغة قبل ان تعكس مرآتها، كيفية اندثار العالم، وسقوطه المريع، في ثقب الكراهية، وانحلاله في زمن الغضب، واستسلامه لهوس النهايات، واضحاً الطابع المزدوج لوظيفة اللغة "فصاحاً-إفقاءً" ، فهوذا السادة الجدد. فما أهلن ان يخفى حسل البلاغة سعوم المعاني القاتلة. وما أقرب من ان تتفتح العبارة ليختفي داخل قشرتها الجلد. وما اغرب ان تسقط الكلمة التي كانت يوماً مقتسة، وترتفع اخرى ينفع فيها، كهنة جدد، من رحى اوثق ورانحة شوؤتهم للهيماء.

علمتنا الازمة الحديثة للارهاب انه ما بين تمجير الكلمات وتجمير البنایات مسافة بلاغة للقوس العمبا، تختصرها لعبية التواطؤ بين الاعلام والسياسية في جوهر منحة (الفوضى). وما بين التجاهيل والتغافل لعبية تبادل للذوار وحظلة لازداء الاقنة وبمراقة توأملي تفضحه حركة رقص خاطئة، وبدلاً من ان تصرخ "انكم ترقصون بشكل سيء" او "انكم تدوسنون على أقدمنا" يتبعن علينا بقوه اللغة ان يتبين خطاب "كل الاشياء على ما يرام" او "ليس بالامكان احسن مما كان". يفصح العجز عن تغيير الواقع، الصمت والتواطؤ بين اللغة وعلم الظلال. كما يعبر احتفال النخبة المسطرة وهمنتها على حلبة الرقص ومناخ الحفلة، قدرتها الفائقة على تغيير جلدها، بكلمة عربها الفاضح ليسا لغريا مقولا. ذلك هو البعيد السياسي لتوظيف اللغة من أجل وضع ورقة التوت على عورات السلطة والسياسة.



ديكارت



كان

"كذار توف" عدة أمثلة لتبين ان الاسباب اجتماعية اكثر منها لغوية: فيلزند حصلت على استقلالها في العام 1920 وقت أصبحت الانجليزية لغة الحديث السائد في جميع البلاد، لأن التحدث بها أيسر بطبيعة الحال. وهذا نفس الوضع في الهند اليوم. وشة مثل آخر هو اللغة الرسمية المستعملة في اسرائيل، وهي اللغة العبرية القديمة. وهذه اللغة لم تعد لغة الحديث منذ آلاف السنين، ولكن بما ان سكان اسرائيل خليط من شعوب متعددة يستحبيل عليهم التفاهم بسبب اختلاف لقائهم لذا كانت العبرية هي بيبيلهم الوحيدة للكلام. إذا كان هناك اختيارات عملية خاصة هي التي ارغمت سكان بلد بأكمله على تعلم لغة جديدة. والحاجة الماسة لذلك كانت هي مفتاح النجاح.

صراع الحضارات واللغة العالمية

إذا ما أخذنا بفرضية حتمية العولمة Globalization ودفتها في الوصول الى سوق عالمي واحد او حضارة سوق واحد، نجد في سياقها نزوعاً حول تقييم الاتجاه نحو ايجاد لغة اصطلاحية واحدة تتبع بالتدريج الى لغة وحدة للعالم يتم استخدامها وتبادلها سواء بالتحاطب بين البشر او بين الحاسوبات الالكترونية او ما بين مراكم تبادل البيانات وتتحقق وصناعات المعلومات. ومن ثم فان فكرة الاتصال والتعامل والتداول سوف يدفع الى ظهور لغة انتقامية تزيد من عملية التقارب اللغوي الى ان يصل العالم الى التحدث بلغة واحدة.

ويذهب "هنتنغتون" في كتابه "صدام الحضارات" الى ان اللغة والدين هما العنصرين الرئيسيان في آية ثقافة او حضارة. وإذا كانت هناك حضارة عالمية تظهر او تبرز، فلابد ان تكون هناك ميل نحو ظهور لغة عالمية ودين عالمي. هذا الزعم في رأي هنتنغتون يتم غالباً بخصوص اللغة. لكنه يركز على اللغة المشتركة او لغة الاتصال Lingua Franca أو بالاصطلاح اللغوي: لغة الاتصال LWC وليس اللغة العالمية. ويشهد بالعالم للغوي البارز "جوشوا فيشمان" الذي ذهب الى ان اللغة التي من المرجح أن تقبل كلغة مشتركة او لغة اتصال LWC هي التي لا تكون مرتبطة بجماعة عرقية معينة او بدين او بایديولوجية. والانجليزية أصبحت حديثاً "مزروعة العرقية" او "عرقية الى الحد الاندى" كما حدث في الماضي مع الاكيدية والألمانية

الاخيرة سوف تؤثر في مدى سيطرتها على شعوبها. وقد كان علماء القرن السابع عشر يطمحون بوضع لغة بسيطة تثير للإنسان الاتصال وأول من عير عن هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" إذ كان متأكداً من أن الفلاح يفضل تلك اللغة سيكون عليه من السير ان يفكر في ماهية الأشياء وإن هذا التفكير سيكون أيسر من تفكير فلاسفة اليوم؟

كما اقترح "لايتنت" طريقة أخرى لوضع هذه اللغة ورأى أن هذه اللغة العالمية المشتركة تصبح لـججية الفكر البشري. وابتكر علماء القرن التاسع عشر لغات جديدة على أساس مهزلة تعلمها. أي عن غالبية المجموعات السكانية في عالم اليوم والتي لها وزن سياسي واقتصادي تستطيع بدون كبير عناء تعلم هذه اللغة المصنوعة، وكان أمهم "جوهان مارتن شيليار" الذي أوجده مودة لكتابه كمحاولة لترجمة أصوات كل لغات العالم وحتى العام 1899 كانت هناك 283 جمعية تدرس هذه اللغة التي أطلق عليها اسم "فولابوك" و 25 صحيفة تصدر باسمها وما يزيد على ألف معلم يروجون لها. وصدر عنها مئات الكتب والنشرات وأخيراً إلى الوباء.

وفي القرن العشرين نذكر بذكر المحاولات المماثلة منها اللغة العالمية التي ابتدعها "يسبرسن" وسماتها "Novi" فوفقاً لهذا لغة اخرى من تأليف "سيلينو" سمها "لغة الكنية" بدون تصرفات Latino Sine Flexione واللغة العالمية الأمريكية الحديثة التي سمها مينكروها "انترنجوا" Interlingua

وقد أثبتت غالبية الساحقة للمشتغلين في علم اللغات تبني لغة مشتركة تصلح لتفاهم بين مختلف شعوب العالم ونعني ان نشير إلى بعضهم. فقد ناقش "جاكوم جريم" هذه المشكلة مناقصة مستفيضة، كما ابتعد كل من اوتوپاسيوس ودي سومير وأوجدن وريشتر لغات مصنوعة تصلح لهذا الغرض، كما قام كل من بروبال وبرجوان وليزكيان وكورتي ولجر اسبرى وميه ومالير ومولر وكانت وستيتر وفولسر وشوشارت وسويت وكثيرون غيرهم بإبتكار لغات مشابهة. ولكن لماذا افشلت هذه اللغات؟

في كتابه "اصوات وشارات" يعلل عالم اللغة الروسي "كذار توف" فشل اللغات العالمية المصنوعة بأنه لا يمكن في بنية اللغة إيمانها في أن اللغة ذاتها يجب أن تغير عن ضرورة أي حاجة ماسة لدى البشر، بحيث يستحيل عليهم بدونها موصلة حياتهم وأعمالهم. ويضرب في



هنتنغتون



بوش

يظل حلم بناء حضارة عالمية مقتراً إلى شرط استيفاء اللغة العالمية أولاً، وإن رواية الكتاب المقدس عن شعوب الأرض التي كانت تكلم لغة واحدة لم تزل تختفي أفق الشعراء والمفكرين الانسانيين. لقد كانت البشرية متمنٍك إدّاه واحده للكلام ولكن الناس عصوا الرب حين تزأّ لهم أن يشيدوا برجاً يصل بهم إلى السماء "برج بايل". وحين انهار البرج الآخر "في نيويورك" تبللت ألسن السياهات الدولية وكانت اللغة غير المتماثلة "حرباً غير متماثلة من حيث الوسائل" وانشطرت وتمزقت لغة التوحّد والتّوحيد "عالم الاصحّالات والاعتماد المترافق" و جاء "الإهاب" ليختصر هوية زماننا في خلاف وأخلاف، بينما لا نهاية له. لكن أحداث 11 ليلول إذا كانت قد دمرت برجين عمالقين في نيويورك، وتركت ساحة مانهاتن درداء، شهدت على انهيار البروج بما تحمله من دلالات رمزية وحضارية، فإنها قد دفعت بذلك البرجين المنهارين إلى قطع المسافرات الشاسعة لاحتلال البُلد الذي كان يزيّنه برج بايل المنهار في حدث درامي يليق بالآنس وفرق الشعوب الواحدة إلى أقوام وجماعات متّاخرة. وما بين تاريخ انهيار البرج الأول في بايل - واللحظة الدرامية لأنهيار البرجين التّوامين - في نيويورك - انعدَّ المظفر للغرفة والنّزاع والاحتلام لسياسة استخدام القوة بما يضيق من حدود عالمنا الروحية. وكانت انهيارات اللغة تظرّ عبر عبار الآهيار الآخر، لكن ليس الآخير.

ها هي الكلمة مجدداً، قد تعطى أخيراً من روّحها للمسافة، مثلاً تعطى المسافة من روحها للزّمن: ثانية قرون فاصلة بين السقوط الأول "هو لا كو" - المقروط الثاني "بوش"، لا تعطي للانهيار الكبير مغزاً في لغة اللغة - الموجود أو لغز اللغة - الانهيار. إذ أن المسافة الحضارية بين خمسة آلاف عام عراقة ممتلئة بالانهيارات وخمسة أيام أمريكية فتية مشحونة بعنفوان الانهيار، قد تفصل بين لحظتي "الانهيار - البناء" بمعنى المشحون بدلالات الانقسام الروحية والتاريخية والانسانية. فعل هي مصادفة أن تكون لحظة الانهيار، هنا وعلى ارض الحضارات - بلاد ما بين النهرين - مجدداً، في زمن ما بين الانهيارات، مناسبة لعدّ حوار تاريخي فريد بين بناء الانسانية القديمة ومستقبل انهيارها القائم.

إن إعادة بناء عصرنا لن تتم إلا بصياغة موحدة لرواية برج بايل. والطريق نحو الحضارة العالمية "الوحدة

واللاتينية. ويدّه هنّتّغتون إلى أن استخدام الانكليزية للاتصال بين الثقافات يساعد على دعم الهويات الثقافية المستقلة الشّعوب ويفوّتها(21). ونحن لا نستطيع إن نحس بخطورة مثل هذا الطرح من دون أن نأخذ بعين الاعتبار، أن تغيير العالم هو أيضاً تغيير "كتابات العالم"

فالغرب يسعى إلى إعادة

خلق العالم على صورته

والكتاب المقدس والسّيف قد

استبدل اليوم بعلم اللغة

الأنكليزية ومساعدات

صندوق النقد الدولي

والإمبراطورية البريطانية

قد استبدلت بإمبراطورية

اللغة الأنكليزية. وتعزّز

هذه اللغة كلغة عالمية تمكن

الرأسمالية من التكفل لعالم

متغير والهيمنة عليه. وقد

لاحظ فيليبسون في كتابه

"الإمبراطورية اللغوية"

السوابق التاريخية لهذه

الحالة وصولاً إلى حد

"اصبحت فيه اللغة

الأنكليزية ليست فقط تمتّل

فكّ الناطقين بها

ومشارعهم بل كذلك

واسطة تطوير التراث

الإنساني بأسره... وهي

المفتاح لاسرار المذلة

التي مستحلّ علينا بها

الاعوام القادمة"(22). يبدو

أن الهيمنة الإنجليزية تغدو

الحادية اللغوية تحت ظل

روبة من الداروينية اللغوية

في شابة عالمنا المعاصر.

فهل نحن نامّ عصر

استعماري لغوي جديد



يؤدي إلى الإبادة الثقافية؟

من برج بايل إلى برج نيويورك

لأنسانية" بمثابة محدداً.

يتأسس وعي المكان، في اللحظة العراقية الراهنة، على نمط جديد من الخبرات حيث يتتبّع الوجود نفسه ببعاداً مكانيّة تقتني بما هو ذاتي وتتجسد بمقدار ما تكون قابلة للفهم والتبيّز وهي تؤلّف بين الفضاءين الجسدي والنفسّي، وتشكل، عبرها، الطبيعة الدلالية للمكان، بما يدفع علاقتنا بمكاننا العراقي إلى مساحة جديدة من التعقيد، حيث الجسد يكابد في اندحار المكان والنفس تتسبّب بخلال فراديسيّها الغائبة، إنّها تُصْنَع، بطريقة ما، من شروط خبرتها الإنسانية في اللحظة التي تعيّن لها في محاولة لإنتاج وعيها الخاص عبر معانينة الأدوار التي يتحوّل بها فضاء حيادي إلى مكان ذي معنى، لتسمّه مسكنّنا، بذلك، في إنتاج طبائعنا وتشكيل أحاسيسنا وبناء هوياتنا بما تمنّى به من معان، فليس ثمة مكان فارغ غير المكان الذي لم يوجد بعد، وبما تزخر به من دلالات تحولّ يتحوّل موقعنا في الزمان من الفرقة إلى البيت، ومن البيت إلى الشارع، ومن الشارع إلى الحياة، تنفتح متواالية الأماكن وتتمتدّ بافتتاح الخطى واتساع المسافات، تنتجز النفس وظيفتها عبر أنسنة فضائها حيث تكتسب الأماكن "دلّالات رمزية" وتصبح كنایات عن حالات ذهنية بعينها، أو عن منظومات قيمٍ "إنّها تسمّم، بشكل ما، بإعادة تنظيم علاقتنا مذواتنا عبر بناء أو تدمير علاقتنا بالمكان..."



إننا في لحظة التي تتجاوز فيها عن المكان تبعد عن عبره، وفي الوقت الذي أنفقنا فيه ، هذه الطبيعة البدائية التي تحصلنا بعضاً منه منها تجعله يحصد ما تزعمونا لنقراءاته مرتين أخرى لمراجعة ما يمحى من سطور جمالها والنظر إلى ما يزيد من سطوة تتجدد من كتبه وعاصي صامتاً من هنا يبدو المكان أكثر قدرة في التعبير عن العدوك فهو يتجرّد في قلب المذكرة من كتبه وعاصي طور حياديًّا تنبئه العوادث عنه وهو ملهم، ليترفع عن راهنيته متغراً حاوذه ومسهماً بتجدد الحديث بوصفه أحد أكثر عناصره دقةً وأمانةً وهو يحمل سماته متجرّداً في الزمان، سيتجرّد المكان، مرّة أخرى من كتبه صياغة حرفيّة لـ «ما كان»، ليجمع الزمان، بإسعاده الثلاثة. في لحظة واحدة: إنّ الحاضر الذي يكتنوا بالماضي، والماضي الذي ينظر إلى المستقبل... إن أكثر من ثلاثين عاماً من اندحار المكان العراقي مساحة زمنية كافية للتعبير بما سيؤول إليه هذا المكان، حيث تقدمت المسكرات وتراجعت الحداقي، حيث واجه مين مديرية أمن، في عبّت سكاني صارخ، روضة أطفال... ستعيننا قراءة المكان العراقي بمختلف مظاهره على بلوة إدراكنا بالحدث الذي يبدو عصياً على الإدراك.

حسن الله



الديار بوصفها نصاً

قراءة في جماليات المكان العراقي

بغداد

◆ مدينة الأحزان العظمى

أين أنت؟
أين البلاد؟
أين العيد؟

لطفية الدليمي



و شوارعها المظللة بالأشجار و حيث كانت تقام المهرجانات والاعياد تناثرت الجثث، اور ... اكمل الجوع ناسها و حمل نهر الفرات الأطفال الموتى كلهم [الاسماك].

* الهاريون من المدينة المدمرة فروا عراة وحافة من البيوت التي استبيحت و هرعوا طلباً للنجاة، الوجوه مخضرة لفروط الجوع بعد حصار اور والخطى متزحمة وبالبعض بدأ ساقط على الطرقات التي رصفت بالمحترضين الموتى.

بعض الناجين يحملون سلال السمك المجفف و جرار الجعة و قوارير الزيت الزيت الذي لا يقدر بثمن وهو ما يجذب انتشاره و الهرب به. اخريات يحملن قر اص خيز الشعير، امرأة واحدة فازت بعذق تمر شهي ناضج و سبقت الحشد لتحمي غذيتها، إلا ان الجياع هاجمواها و طرحوها ارضًا و انتزعوا منها التمر و هرستها اقدامهم الفظة.

الاطفال المرعوبين كانوا يركضون حاملين دمى طيبة و تماثيل ذئبة صغيرة و مرثأة المرتى يرددون اناشيد الدين:

[الدمار الذي صنعته الاعداء بدميتنا
حجب وجه القر في منتصف الليل
و حطم شعاع الشمس في الصباح
اوقد ينابيع الماء و طرد الغيوم
و ترك البلد اطلالاً،
و الامهات تكالى
و دنس معبد الكبار المقدس]

الريح ريح الجحوب تصرب باختحاتها الوجوه و الحقول و غابات النخل و احاجات القصب و تهيج الغبار و الهشميم في ازقة اور المدمرة... الخاوية.

حامل القربان يحمل دعياً صغيراً و يذبحه على حجر مستقطلي مرتفع بديل المذبح المقدس في المعبد و البنايات اليائس يحقن بالذبحة و يحملن برائحة الشواء و يغصي على المجموعات فترش الأمهات مياه الفرات المقدسة التي جيء بها من شريعة المعبد على الوجوه الغائبة...

يتأنه الفرات، و ينتحب شجر الخالوب و تبرق علامات الفناء في الانهاء، لا ماء في البلاد ولا ضوء و الظلام يشير إلى سماء حجتها ادخنة الحريق، بينما الاسواق في الاحياء الفقيرة و المرفهة تشير إلى الكولا و السفن اب و السينالاكو و لفائف الحشيشة و الحزن يتعالى

(1)

رحلة اينانا هت اور الى بغداد

الحكماء السبعة اشاروا عليها بالرجل...
الحكماء الذين ولدوا من مياه الاعماق العذبة الابسو...
الحكماء السبعة (الاكالو) وهبوا فنون الحضارة ومهارات الصناعة وعلموها اول العمران في المدن السبع المقدسات.

اور - نفر - اريدو - كولاب - كيش - شروبك و لكنش.
الحكماء السبعة منحوها التساميس ولوائح المصير وقوتينا الوجود في ازمنة ما قبل الطرفان، اينانا نجائز غابات الخل و احراس القصب و حقول البردي، تخلق فوق الحقول التي غزاها العرسق و الحلفاء الحكيمه الساحرة تمضي فوق الانهار العظيمة التي سمعوا مياهاها و تبصر الذين حللت بهم الكارثة. تطلب من (الاكالو) الحكام المعمرين تقديم العلاج للمتألمين والمحضررين على الطرقات.

تغير البانتين الزرقاء و الضفاف التي حرمتها الملوك على ذوي الرؤوس السود و الجموع هائمة تمضي في التيه و النيران تطارد الهاريين بينما الاعداء يوصدون المنافذ بالخاذق المنهية و الفخاخ.

لا ترى اينانا في الطرق الارورية النازلة الى الفرات او المتناثلة في البراري غير البشر الصامتين، الحشود الذاهلة فقدت قدرة النطق و الصراخ و غادرت اور مشردة في جهات ما بين النهرين.

الجماعات الناجية تقو حدها الاخر و تستدل النساء على الطرق بالحدس و الروائح ويسرن في طبعة الجموع كالمسيرات. القرى الصغيرة المحاطة بسمارع الشعير والذرة صامتة خاروة فقد هجرها الجياع الى البراري.

اور العالية مثل جبل مضيء، اور احرقها الاعداء و ما ايفوا شيئاً.

الاعداء انسحبوا منها تاركون حامية وسلحاء، اخذوا النساء المسبيات و الرجال الاسرى الى بلاد عيلام، النساء مغلولات الايدي و الرجال مربوطين الى النير (٠)

[هذه المدينة المهجورة قدر لها الصمت،
فلا ينطلي فيها بكلام حدا المثيري و المناhat...
اور في داخلها موت و وفي خارجها موت.

في داخلها يتساقطوا الناس من الجوع
وفي خارجها يقتلون بأسلحة العدو...
الناس ينتون وجثث الموتى ملقاة في دروبها،

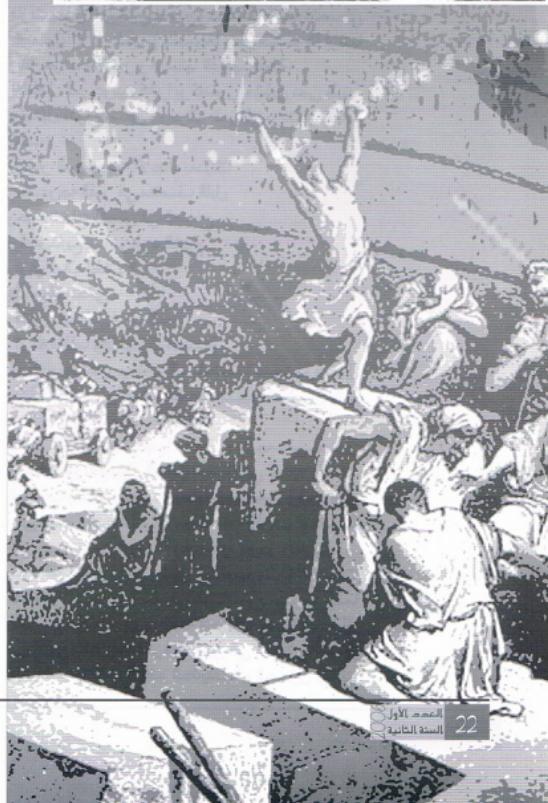
دوامات دوامت فوق المنازل ورؤوس البشر ، الكباتن الانثوية التقليلة تطعن لحشاء النساء وتطلق دموعهن على شجيرات الآمن فتره ورودها اللولو ويفوح عطرها المر قربين الطقوس الدينية.

المتشبعون نبوا بكل شيء ، والجائع يخشون بقية السنابل في الحقول المعروفة ، وجدن الاداء خطروا النباتات واغتصبوا هن تحت اشجار الصفاصاف التي ما زال تتردف دموعها حتى الساعة ... للوصوص نبوا المعابد والقصور صحبة الجن ، واضرموا النار في البياني ، وتركوا بكل شيء زماما حتى انتحيت الكواكب وينكت الحجارة وسلطت منها قطرات مياه ثمينة تحولت بعد بردها الى جواهر حررة فتضخر المساء بالغسل المدمي وانقضت شجيرات الجهنوميات مطلقة جذونها الاحمر ازاهير قرمزية في محاولة منها لتمويه الغراب والنسل المهدور بنيوض الجمال .

نافل ايقاناً المؤجل ...

زاقها الموجل من ربيع الحرب الى خريف البلاد ، تزييت له شجار التقاض ، تزييت شجر الكثري والعنب ، تزييت اعمدة المعابد واواني المستنصرية واروقة القصر العائسي ، تزييت بالاضواء والبخور والورود ، وصدقحت موسيقي الطقس المقدس لزواجه ايقاناً ، موسيقى خصوبية صافية اوقظت خجاجات البشر والكائنات الاخرى ، فلاحقت الذكر الاناث في المروج والغابات وفوق القلال وشهقت الفراس الجامحة وحير الوحش والسباع الممتاح ، قدمت الكاهنات الصغيرات بين يدي ايقاناً داديا الملك وحكام البلاط المجاورة ظمارا من كل نوع . قدوا لها اوسمة مرصعة بالغلوذ وانطقة تزييتها احجار الولاد ، وقلائد بها تعابيد الخصب ، ثم اقبل الحجاب بسال مليء بالرمان ، جاء بها رسيل شلنون في عربات تحررها التنانير او في سيارات (الكرز) من دون ان يفصخوا عن مرسل سلال الرمان . ايقاناً تدهشها الشمار المكتملة المكتظة بالحجب الشهيبة ، والتي لفرت نضارتها تكاد تنفجر قشورها اثر لمسة رقيقة .

تستدعى (ايقاناً) بسائلها ، هي إلهة للحرب وبإلهة للشهوات والخصوصية ، سيدة الجمال والغواية ، رمان كثيف ، وشمار ناضجة كأنها نذر البدائيات او نذر النهاية ، رمان (الطاقد) الحلو عدم البذور ، رمان الغرطوم (القرمي) ، رمان (مراكش) ، رمان (اسيوط) ، رمان (تعز) الاصفر ، رمان (اللاتانية) الوردي ، رمان



بارمان الاخوي والانطقة الناسفة والسيارات المحملة بالموت، ينثرن الجداول التي من شعر كثيف شبيه سدابل الحقل او سفن النخيل.

ترمي اينانا-عشثار تاج الملوكية، تخلع عقود اللولو المعوذة، ترمي وشاح صدرها المزین بالالزور، تخلع نطاقها المرصع بأشجار الولادة، تخلع خلافيها واساورها، ترمي رداءها الاخير وتحتل حزمة القصب المترتبة تعلق قضيبها وتصرخ بالعالمين:

- هـ اندى قادمة لأدون ثـار سلاتني على جبهة الملوك وما ان تصرخ اينانا حتى يمتد الوقت وتتهاج رياح الجنوب وتهب خبول النار وينطلق طائر الرعد وطائر العاصفة (النزو)...

تتداي (اـدـ) سيد الرعد والعاصف، فيطلق صرخته في بلاط الدهرين، تبدأ قيامة الثـار او ثـار النهاية.

ترمي تعونتها على الدبابية الصفراء، فتحتحول عربة الفولاذ الى سلحافة تغير العربات الناقلة، محض زواحف صغيرة ويصبح الشارع المستباح ضفة لنهر من زمان ما قبل الوجود.

يتقدم اندـ... .

يتقدم عاشقها حاملـارـأسـهـ بينـ بيـهـ...
يتقدم اباـهاـ المـجـحـونـ وـبنـاتـهاـ الاـثـيرـاتـ،
يتقدم الغـصـقـ وـالـفـجرـ

يتقدم الفـقـصـ المـائـيـ

يتقدم الـاهـلـاءـ حـامـلاـ سـهـامـ النـارـ...

ثم يبرز الحـبـ حـامـلاـ عنـقـ التـمرـ، خـراـمـيشـ نـسـرةـ مـذـهـبةـ، يتـقـدمـ الغـزالـ وـالـأـسـدـ وـالـأـقـعـ وـالـثـورـ السـمـاوـيـ وـالـجـاءـ المـسـمـنـةـ لـلتـقـمـاتـ، يـسـيرـ الرـعـاءـ وـالـمـلـاحـونـ وـالـهـرـاثـونـ وـصـلـانـوـ التـمـاثـيلـ وـصـاحـبـاتـ حـاتـاتـ الـهـلـةـ وـيـطـلـقـ الـعـرـاقـ تـبـوـةـ آخرـ.

ـ يـاـ جـارـ القـصـبـ يـاـ جـارـ الرـقـبـ، أـصـنـعـ قـارـيـاـ منـ الـجـبـ وـانـجـ بـأـهـلـكـ وـالـكـاتـنـاتـ منـ الـكـارـثـةـ، فـالـطـوـفـانـ؟ـ آـتـ...

(الـقـيـرـوانـ) المـفـمـ بـالـعـصـبـ، رـمـانـ (قـسـطـنـطـنـيـةـ) المسـتـدـيرـ... رـمـانـ كـثـيرـ يـتـحـرـجـ مـنـ السـلـالـ اـمـامـهاـ، ما انـ تـهـمـ بـواـحدـةـ مـنـ رـمـانـ التـقـمـاتـ الشـهـيـةـ حتـىـ يـهـ المـوتـ بـالـسـاحـاتـ، فـيـنـقـلـ رـمـانـ وـقـسـطـنـطـنـيـةـ الدـمـوـيـ بـالـعـدـلـ بـيـنـ نـسـلـ اـينـاناـ وـسـلـالـةـ ذـوـيـ الرـؤـوسـ السـوـدـ مـنـ بـلـادـ السـوـادـ، يـقـسـمـهـ مـوـتاـ مـقـسـطاـ مـوـزـونـاـ بـالـنـصـانـ.

يمـدـ الموـتـ مـنـ سـاحـةـ (عـدـنـ) وـ(سـاحـةـ الخـلـاثـيـ) وـ(بـلـيـاجـ) وـ(حـسـيـ خـصـراءـ) وـ(الـغـزـلـيـةـ) وـ(الـدـورـةـ) وـ(بـيـنـ غـدـدـ الـجـدـيدـةـ) وـ(الـكـرـادـةـ) وـ(الـمـنـصـورـ) وـ(الـحـارـثـيـةـ)، تـمـتدـ مـخـالـبـ الـسـوـدـ وـظـلـالـهـ الىـ الـمـازـالـ وـالـشـرـفـاتـ وـالـنـوـافـذـ يـنـظرـ كـرـبـهاـ عـلـىـ الـمـهـوـدـ الـهـزـازـ الـمـزـينةـ بـالـتـعـيـدـاتـ الـزـرـقـ، وـالـوـدـعـ الـلـهـرـيـ يـحـطـ عـلـىـ سـرـيرـ الـعـاشـقـةـ وـكـرـسـيـ الـجـدـيـدـ الـجـدـيـدـ الـهـزـازـ وـسـادـةـ الـصـيـيـ المـرـاـفـقـ وـهـوـ يـلـمـ بـأـلـوـلـ قـيـلـةـ، وـيـنـهـمـ عـلـىـ كـتـابـ الـإـنـسـنـ الـصـغـيـرـ الـتـيـ تـهـمـ فـيـ تـشـوقـاتـ الـرـوـحـ وـاـنـخـطـافـاتـ الـجـسـدـ وـهـيـ تـسـتـحـضـرـ صـوتـ فـتـيـ مجـهـولـ مـنـ اـمـامـهاـ.

يـكـرـ حـقـ الموـتـ وـيـتـسـعـ بـضـجـجـهـ وـجـونـهـ اـذـ اـضـصـانـ طـلـارـاتـ الـابـاشـيـ معـ شـهـوـهـ رـمـانـ، يـتـهـاـيـ اـلـىـ الـطـرـاقـاتـ الـعـابـرـاتـ الـغـلـافـونـ الـفـلـاغـونـ وـلـيـاـعـةـ الـجـيـوـاـنـ وـالـحـسـارـ وـالـشـافـيـ وـشـرـطـةـ الـمـرـورـ وـبـيـانـ الـعـطـورـ وـالـخـبـارـ وـوـرـجـوـ الـاحـلـامـ وـصـائـنـ حـلـيـ الـعـرـوـسـ وـمـرـوـجـ الدـخـانـ، يـسـقطـ بـيـانـ الـصـحـفـ وـالـدـرـيـشـ الـمشـفـلـ بـالـتـسـابـيـ، يـسـقطـ الصـغـيـرـةـ عـلـىـ حـقـيـقـيـتـهـ الـمـدـرـسـيـةـ الـمـدـمـأـ وـتـهـاـيـ الـمـرـأـةـ الـجـمـيـلـةـ الـخـافـقـ بـأـجـنـحةـ منـ حـرـيرـ وـلـوـحـشـةـ دـانـتـلـ وـعـطـرـ. تـبـرـ (اـينـاناـ) الـسـحبـ الـمـتـهـجـهـ مـمـتـلـيـةـ صـهـوـهـ (رـجـلـ) وـهـيـ تـجـرـ وـرـاءـهـ اـسـوـدـ وـطـيـورـ مـقـرـاقـ نـوـاحـةـ، وـتـهـبـ لـعـبـورـ الـمـارـارـ الـخـطـرـةـ فـيـ بـغـدـارـ فـارـدـ جـلـاحـيـلـاـ الـلـذـينـ مـنـ نـورـ وـنـدىـ عـلـىـ جـزـءـاتـ الـمـدـيـنـةـ الـمـتـالـلـةـ. تـرـاـهـ الصـغـيـرـاتـ الـمـذـبـحـاتـ الصـادـعـاتـ إـلـىـ الـاعـالـىـ الـمـحـمـولـاتـ عـلـىـ الـرـمـانـاتـ الـشـهـيـةـ الـمـقـدـمـةـ مـنـ مـدـنـ الـأـخـيـوـاتـ وـمـدنـ الـقـرـبـاءـ، تـمـسـكـ اـينـاناـ بـالـشـفـقـ وـتـنـتـرـ الـغـامـ الـأـرـجـوـانـ عـلـىـ الـبـيـوتـ الـمـهـارـةـ وـالـمـقـابـرـ الـجـدـيدـةـ الـمـكـنـظـةـ وـحـسـواـجـ الـكـوـنـكـرـيـتـ الـتـيـ تـتـلـعـ عـنـدـهـاـ الـخـطـىـ اوـ تـتـكـرـ الـنـوـاـيـاـ.

تقـيـمـ (اـينـاناـ) مـعـ سـيـدـاتـ الـوـلـادـهـ الـخـالـدـاتـ (بـيـنـتـ) وـ(مـامـيـتـ) وـ(نـخـرـسـاـكـ) مـنـاحـةـ كـلـاـكـ الـتـيـ يـقـنـعـهاـ لـنـدـبـ الـأـلـهـ الـمـغـيـبـ تـمـوزـ، يـنـدـبـ الـسـلـالـةـ الـمـفـتـلـةـ

(2)

رويا اتر احساس (واسع الحكم)

لينـاناـ الـمـلـكـةـ الـلـوـيـةـ الـعـاـشـقـةـ الشـفـافـةـ الـدـمـوـيـةـ الـفـاتـكـةـ: تـلـقـ كلـ الـرـياـحـ مـنـ مـكـانـهـاـ، رـياـحـ الشـمـالـ الرـفـقـةـ، رـياـحـ الجنـوبـ الـعـارـمـةـ، رـياـحـ الغـربـ الـمـحملـةـ بـالـرـمالـ.

يجـلـجـ (اـدـ) فـيـ الـدـنـاـ وـسـهـولـ القـصـبـ وـغـابـاتـ الـثـوتـ وـالـنـخـلـ...

الـرـجـلـ الـفـانـيـ الـجـمـيلـ وـاسـعـ الـحـكـمـ (اـتـ اـحـاسـسـ) بـنـيـ

القارب الكبير بسبعة طوابق، سفينة البردي والقصب
التي طلى قاعها بالقار.

وضع في الطابق الاول البنور والشتلات والفسائل
المحمية في السلال ولواني الطين.

جيس الطيور في اقفاص جريد النخل، كل طيور
البراري وطيور المخاضن وطيور الخراث، وطيور
الجل.

جس السباع، من الاسود والضباع والنور، في
مصورات الطابق الثاني.

خيال القوارض في صنائق والقرود، والبقر والماعز
والخراف في حظيرة، وخيال الجمل والحصان مع عربة
الملوكية التي فكروا الجزء اها.

وفي سلة الاسرار العظمى يكتنز اتر احساس:
خيمرة الخيز وريح الحب وجمرة النار وحجر الحكمة
واحجار الولادة.

اتر احساس وضع (الكلمات) في كأس ذهب محزر ونشر
فوقها زيت الارز المقدس...

اتر احساس جيس الصوت في الكلمات، فعمم الصمت
الكتانات البشرية المأخوذة الى مصيرها المجهول في
السفينة.

اتر احساس وضع الاواح والقصائد والحكايات في
صندوقي من الذهب واللازورد والعنق وختتها، طغى
الماء...

حدث الطوفان والمدن انغرست، المدن السبع المقدسات
غرقت وغارت في الغدر العظيم.

النلال انطمروا، وما زاد برى برج الزقورة وقدم
الاقداس في اعلاها، ولا شوهدت قمم التخل... كل
شئي صاده إلا الماء، كان يزجم ويهدر ويدفع
السفينة الى المجهول في الغدر المائي المتعالي.

اتر احساس جمع الاسماء كلها، اسماء الناس وضعها في
اناء نذر، ولبيت الجميع مجردين من وجودهم وهو
يعومون في الزمن الشاسع بلا هوية يعرفون بها.

رقدت الاسماء والاصوات والكلمات، فاشتد نداء
البراري في احساء الاحياء الذين جروا من شرطهم
الانسانى (الاسم)، حيث يتحقق الوجود والعبور من
الحياة الى الموت عبر (الاسم)، وعندما لا يعرف احد
باسم، ولا ينادي على لحد، ولا تقال الرغبة، ولا ينطق
القلب، يعم قانون الوحش...

يقتل المسافرون باليدي، ويركلون بالاقدام، والاقواه
مطيقه على صمت الصمت المرير.

اتر احساس يضع العذراء الجميلة والفتى الفائق الجمال



تنتظر السفينة في هاًءة امرأة تكلي ترتدى ثياب العداد، وقد انغرست قدماتها في طمي الصناف الغريبة لنهرها الذي بدأ مياهه تتحسر وتترك الغرب الاحمر على الاجراف... طرقات (بلاك) اختفت تحت الطمي المتندس، وضمرت اشجار النخل والصفصاف والتوت والسدر.

النساء المجلات بالسود كن يسرن ذاهلات بعيون فارغة ونظارات كمسيرة او نظرات ناقمة او نظرات تتلمع فيها شهوة الحياة.

اما الرجال فقد كانوا يسرون في القاطل يتجنبون هدير الدبابات والطائرات العابرة بضجيجها المروعة فوق الاسلحه والقباب..

غير ان البنات الياقات اللاتي تفتحت اتونتهن في الرقب وعلى اوصات المفترقات ورائحة الحرائق، كن سجينات في البيوت الموصدة وعيونهن المشتملة تبرق من وراء النفاذ او اسجة الشرفات، يحتسبن الكولا وعصير الصبر، ويحدقون بشاشات التلفزيون التي كانت تبث برامج حية واقعية عن سفل تصيب كاهنة الشؤون الخارجية للعالم وهي من اصل افريقي، او يتفرّج على فخاخ البرامح ذات الجوانز المليونية والراحلات المترفة الى منتجعات الملوك.

سمع اناس السفينة بعد ان استردوا اسماءهم والكلمات والاصوات اغاثي شجيبة لاول مره مذ غادروا مدینتي شروبشا والوركاء مسمعوا اغاثي (ناظم الغزال) و(زهر حسين) و(رياض احمد) ومقامات (يوسف عمر) ورأوا المختفين الموتو ينهضون اثر حريق هائل اتي على اقدم اسوق (بلاك)، وشكلا جحوة تخف عن اهل (بلاك) بعض كباتن الحرب واحزان خراب البلاد وتحرض الناس على الاقامة في الحب والقيامة في المحجة لتذوم حياة المدينة.

وعلى غير منطق الطبيعه وستتها فاجأ المخاض الكاهنة العظيم السومنية وهي بالكلاد اتنت ارسين يوما من ايام حملها لمدبور (اتراسين) وتوالت عليها تقاصات المخاض وخيل لاتراسين انهما يستجهض ما في احشائهما، وارتباك واضطرب قلب، ولم يعتر في شوارع (بلاك) على شفف او طيب، فالمشارق مكتظة بالمحضررين والنازفين فماءهم والموتي ومستقيفات الولادة تحولت الى مراكز طوارئ وفي هذا الوقت من انتصاف الليل لا شيء يتحرك في المدينة غير الدبابات الاميركية تجوب وحشة الظلمات بهدرها وتخرق الهدوء باطلاقات كثيفة على الهواء والشجر والبيوت

في اللحظة المستقبلية، ثم يستفيدهما رحيم العشق، فيدخلان عنبة الدف في زوارق اللذة.

اتراسين يهيي مدفع الحب في أعلى السفينة، يرش الوساند بزيت السرو والغاليل برحيم الور، يقدم كلأس رحيم الحب للكاهنة العظيم سيدة الجمال المؤيدة، التي بلغ عمرها يقدر تاريخ السلالات كلها، وفي جسدها بضعة من كل جيل، واذ ارتضفت الشراب السحري بدأت انوثتها تبتقّتها في مدفع الحب وسط الغر المائي، واديرسل رعد وصواعقه وعواصف الليل الى جهات العالم... يلثم حرج الرجل واسع الحكة برحيم المرأة، ويندب الزمن وتهجي الامكنة في لحظة اللذة التي ستهب الغد توأمين يخلفان الآلهة العتيقة التي تسبّب بالطوفان والطاعرون.

الاَسَانِ في آخر الامر يخلف الآلهة ويقود السفينة حتى النهاية، إنما لا شيء مضمون ولا شيء مؤكّد في الرحالة، لا العدالة، ولا الحياة، ولا الحب، فالكافحة العظيم مثيلة عشتار او هي احدى تمجداتها، فستستدرج الفتى باهر الجمال وتعغازله وتدعوه للوصال بعد ان تشقّي رفقة الصغيرة كاس مية اللون.

لکتها تدور باهرة الشفف الى اتر اراسين، واذ تلقّيه ثانية تهاج الكائنات، الحيوانات، والطيرور، وتحجري شجارات وحوالات سفاد واقاح بين حسيّات مختلفة.

سيتّبع عذما مسوح غريبة تملأ المسقفل بجنونها. غضب اتر اراسين اذ لمس الفوضى تسود مملكته، السفينة الضائعة في الطوفان، والتي تحمل وديعة الآلهة في احشائتها. السفينة تترنح بفضل الفوضى وجنون الشهور وسهيل الخيل وزفير السباع وجنون القردة. البشر وخدم لهم في الغرس، فالكلمات والاسماء والاصوات رهان دنى (اتراسين) عليهم ان يظهروا له الطاعة والولاء -كاي ماك مسلطة- ليستردوا الاسماء والصوت والكلمات، والإلائم سهیبطون الى الارض نكرات خرساء شبيهة بالاشباح الثالثة.

وما ان بلغت السفينة متهيي رحلتها في الطوفان العظيم حتى ارسل اتر اراسين الطائر الاسود ليتبين تخوم اليابسة، إلا انه عاد الى السفينة، ثم بعد اربع ساعات مضاعفة ارسل الحمامه، فلم تعد، فادرك ان الأرض تلوّح له بالنجاة...

قم القدمات لللاء، وهبطت المخاولات الى صفة الارض عند مدينة يقال لها (بلاك)، او تسمى بغداد، وبغداد ومقداد ومقدان وبغدان. وكانت (بلاك)

والمصارخات.
عندما صرخت المرأة الماخص، توقفت بابية الماريزيز
وصوبت فوهة منفعها الرشاش نحو الجموع المرتعبة
من الوحش الحديبي الذي الف نحوهم، فتساقطت العشرات
صريع، او اذار فين على الضيقافت.

همس لها (ائز احاسس) واسع الحكم وقد اكتسى وجهة بالذعر :

- لا... لن اسلمك لهذا الوحش الذي ما حدثنا عنه
الحكايات ولا نباًتنا به الفؤول واقوال العرافات...
تماسكي يا كاهنتي الحبية... تماسكي.

ثانية اطلق المارينز نير انهم باتجاه الحشد الذي يتوضع في الليل، سقطت امراة، وهوى وحيد القرن شبيه الحصان واخر الديناصورات الزاحفة.

عوى اتر احاسس مثل ذئب:

- وهي من خسائرى ... فقدت وحيد القرن والزاحف الاليف، ماذا سأقول لمجتمع الله سومر؟ لقد انتهت سلالتان من عجائب صنعواها.

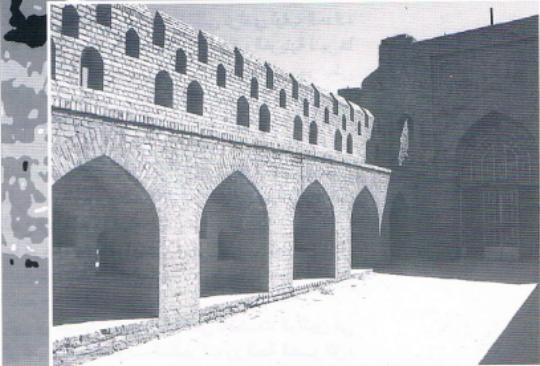
غادرهم الرتل بدباباته الأربع وجنوده الذين واصلوا اطلاق النار على سبعة اثراها متسارعات الناجية من الطوفان، فهراوات الكائنات واحتقرت اطراف السفينة المتمهلة وتغيرت مركبات مثل صوابع اند.

سمعت اينانا صراغ المرأة وعوبل اقر احاسن فهيبط
واقر احاسن يهذى:

لـ... لن ادعهم بيبدين نسلنا، لن ادعهم.
با ليتها السماوات يا ادد، يا انو يا انكي ..
با شمش انت ونناسين القر .. هلموا الي
اسر عوا انفدو السلالة القادمة.

حـملت ابـانـا الـمـرـأـةـ الـمـتـلـمـةـ عـلـىـ جـانـبـيـنـ نـورـانـيـنـ،ـ وـوـطـارـتـ بـهـاـ إـلـىـ (دـورـ كـورـيـكـالـزوـ)ـ فـيـ عـكـرـكـوفـ،ـ فـرـجـدتـ الـرـيفـ وـالـمـارـزـ تـحـرـقـ وـالـحـوشـ الـمـعـدـنـيـةـ تـدـورـ حـولـ الزـقـورـةـ الـعـظـيمـةـ،ـ فـعادـتـ بـهـاـ إـلـىـ حـيـ (ـالـمـنـصـورـ).ـ وـوـجـدـ قـابـلـاتـ الـمـقـدـسـاتـ مـعـ (ـشـنـتـ)ـ الـأـلـامـ الـلـالـدـالـةـ وـقـدـ جـلـسـ الـقـرـفـاءـ فـيـ حـيـةـ تـحـيطـهـ أـشـجـارـ السـدـرـ وـحـولـ حـوـضـ النـافـرـةـ أـقـحـانـ مـلـكيـ وـزـهـرـةـ الـحـبـ وـعـشـبـةـ الـمـاخـضـ وـنـيـتـةـ زـهـرـةـ الـأـلـامـ وـضـعـتـ الـمـرـأـةـ عـلـىـ فـرـاشـ اـهـدـهـ الـقـلـوـلـاتـ مـنـ وـرـقـ الـمـوزـ بـيـتـلـاتـ الـزـهـرـ وـيـدـانـ يـرـثـ تـعـوـيـذـ الـوـلـادـ وـالـمـاخـضـ:

كان لـ(سين) القمر بقرة اسمها (جيمي-سين) عند



الغرابة، إذ هبطوا من المهدىن وهم على ما يبدو قد بلغا
سن الخامسة، وشرعوا يجريان في أنحاء الحديقة
ويطاردان الطواويس والقناص، وظهرت إينانا من وراء

- لمذر يا اتر حاسن، قدق تختلفهما الوحش المعدنية
التي تملا شوارع بدلاك، اخذر يا اتر حاسن ...
ثم ملأت لتهب القابلة ام كريم (سوره ذبيبة) من صنع
(جميل-سين) صائحة حل المكبات في اور واوروك.
ما ان راقعتهن التعمس في النساء، وتوسيط النساء،
حتى اصبح الطفلان في سن العاشرة، وما ان لاحت
أنوار وردية في غصق النساء، حتى نتفتحت ازاهير
برغام بالاشداد في انداء الحديقة، ومسقطت الاوضوء
الخالدة في الشرفات.

مع دهشة وانفاس الالهين المبهورين، كان هناك شاب
وقتذا يهبط من سناة القصر نحو النهر ويرحلان في
قارب ذيبي له رأس ثور، وبه مقصورة لإيانا من
قصب مذهب مفروشة بفراش التمور، وعلى مقدمة
القارب مشغل زبيني ينخدث هيا رأس وحش.
— انتهى.

نادتهاها الام:

- يا ولدي.. يا فرات، يا دجلة اين تذهبان؟
ضحك الشابان ولوحا لهما، وظهرت اينانا ثانية

- انتظرين انك ستملكينهما الى الابد؟
- انها ولدائي.. انا التي حملت بهما وولذتهما... انهم ابناء... اريد ان اسعد بهما.

- يا كاهنة سومر العظمى، إنها بنا الأرض.
- لكن أنا الأم.. وهذا والدهما.. ماذا تقدّم ولدين؟ أين

- سوف يعرف.. سوف يدرك ان البلاد المتألمة والارض الحزينة، قد اطلقت نداءها لها، سيعرف انهما تتضرر مني دهوراً، اطلالة الاثنين.

- لكن.. ماذَا فعَل؟ كِيف؟ ماذَا فعَل؟
- رَتَّلَ لَهُما نَشِيدُ السَّلَام...

(3)

بغداد ما نبوءات غدنا فيك؟

بغداد.. أنت الرائية العرافة فما نبوءات غدنا فيك؟
بغداد.. أنت مرآة الينابيع، ولذة الوقت، أنت سرة
الكلمات، وسر العارفين، حاضرة الظماً والظلمات



طوقت جيبيك.. إلى.. هيا، إلى...
أراك... فهو ترني؟
ترني.. مديدة لا أمرأة.
حرينك الذيبة تحصل ورعاها عبادة البلاد المدمة،
وحر بيك بت أول القاء لقصتك؟

حoshiك المنهوبة ظماً المقاولات، واطرافك التي اكتلتها
الجيوش والقبران مستجعل روبياك باطلة ان لم تقمي في
قيامتنا، قيامتنا باطلة ان لم تهض في روبياك المدينة يا
عرافة العملات ووردة الامكانة.

الراي وترى...
الحرية تسحب خطوتي الى الطرق الخربة والارصنة
ذات الندوب لفطر الخطى الغريبة ولغافل الاسلام

واعداً للنهوض بالبيئة.
شاركوا اورث الزمان فجية المغير، اوصالوا
المقطعة اورث الحزن شفقة الآباء، وعلى نعوش من
كونكريت الخوف اضجعوا نهاراتك المطعونه ليحييا
بضئعه غراء او غزارة في ملائتك، وبرغم ذلك يحتشد
في جوارهم الخوف أكثر مما يراودهم اسمك.
الاخلاقيات وتلال المندوزات تعيق رسم ملامحك المنهوية،
وتحتولون في برهة انفجار الى مقابر مرتجلة ومشارح
للاحسان بذلك المكده.
للاحسان بذلك المكده.

واما بين رؤبة والخري، وما بين بره وبره، تختفي
ذلك معلم، وتزور البياني في الخفاء، تمضي في العدم
نوناذ البيوت التي زخرفها الياسمين وورد العسل
وتقترب إلى أحياه في العماء الكبير. ما من نظرة ونظرة
تكتفي بنادقها في الدخان فلا ينبعلي حتى تكون قد ثالثت
هـ، ثم فات الأداء

السادة الاصحاف من اور حتى الحضر ومن اشنونا حتى سيبار يهمسون للراقصين في متاهة حاضرك.

خطاقي من ينذر إملافي تربة الغريب
وخطاقي للتاريخ في حتمياته الزلالية...
يقصون بيرغف الفتح المنشورة بالسمسم من
بربروباك، يقصون بنجمة المساء، زهرة عشتار،
بابل... يقصون بغارزا في وجنة كاهنة تحمل صدى
اسماء.

يُسمون انه سيرفون الماء الى اعلى الخوف وحزام الجبل، ويدهضون الحرب التي زحفت على متن وعود وجلالة لحلم وان كانت بحجم كرسى عرش او نعامة حمقاء...

العاصرة، شمسك تستطع في النهارات العاصفة،
وتمرك علن ليل الرغبات في العنة الجديد، فيك موت
كثير منذ ألف عام، فيك رب كثير بنيت من نص
ساعاتك ونجلة يمتد تحت حجم الاله ونكتشاف
الثيران لعن لا يرى سمرك او يوقن بسر خدك.

أراك وانت الان لا ترين احدا...
خطوتك تتراوح بين الموت ورزايا الامس، وخطى
نسائك تت Rudd بين الاطلاقه والشهقه والمخاوف.

كل ما ياتيك يجيء في هبوب الرياح العتيقة شرقاً
وغرباً، ومحاربو جيوش المأمون يلتحقون مقاتلي
الامين، وفي جنون قتالهم تهار القبة الخضراء التي
تتوسط بها (المنصور) قصر الخلافة.

حرية الجنون تفتّك بحرية الروح وتبعدك بينهما...
والحرية تنمو اصفاداً في معاصم البنات وأحلام
الرجال.

ليك متد تكيف، ينمح سواده ويرهبة ويره في
السحب ورعشة النهر والنهر سجين وراء القصور
الممنوعة من الموج والخطي.
من: مغارات الاحاف عل دحلة تبعث اصداء موسيقى

عقيقة، عزف على العود واصوات مغنيات روميات
وسر قنديات وهنديات.
ويتاهي الى حريم دار الخلافة اذك وقعت في قبضة
الخراب...

يتصادي نواحى الوجهان والمربيات والوصفات عدد
مرأى القتلى من ابنائه وابناء الامين والمأمون. وتنتفع
سيدات دار الحرير بألوحة الحداد، وبطريق العرافون
نبوات جديدة عن حمن ومصائب قادمات ستجعل من
اوضنك وسادوا ومن نسائك سيايا.

دمو عك لفاس دجلة التي تخبيها الامماك والسلاحف
في حوشـي الرمل، ومن المغاربر تطلق اغاني
الاكلات والعباسيات والبليات وانت في صدمة الهول
تبتغي استئثارك في الربيع، فتفعم سماوك من اور وبنيني
وخرسید يخصين البوت ويسرقون السماء، فترتشـ
جوارح الشاق في الملاذات القمرية والعشب ينطاعي في
عسـان وغوي البهابس ملونة الاجنة بالصلادة حجا

بغداد... أراك، كفيف لا ترىني؟
اعلم وتحمّلين أنهem عصبياً عنك بالغامط الداكنة،
وحاوارا بين نبض سرتوك وأسرارنا، فطلفت بك الحرائق
ونقهرت لحاشوازك بالجنون وهدر اليقينيات الزلة.
تقصدني إلى... دعى الـلـهـ بـلـهـ المصـانـبـ السـودـيـ

ازتهم، هم الآتون من جحيم المدافن الكبرى والهزائم
والطوفانات والمذابح، قلوبهم آنية اللعنة، أفواههم كؤوس
القصائد، أفكم فقارير الاسرار، اعيهم زهرة الوعود،
آتون إليك في دم النساء وهن في دغل التشوه وسرير
الجهنم...
.

ففترس الغانى، الزغاريد تحلق فى اجنبة اليمام،
الاقاعي المقدس سارقة عشبة الخلود تتقدم المشهد،
الكهنة يروحون فى لحظة الوجد يرثون اسمك
العشبة تكبر فى الاناء المقدس.

ضلهم جدران الكونكريت عن رائحة شوافعك .. تيه
لهم التوابا، تصلهم مراتيك المتلاشية في الغاء الاخير
لا يستلون عليك الا ببعض علامات تبليهم:

هذه ليست مدينة، ليست مدينة!
ذلـىـكـيـسـتـ حـاـضـرـةـ النـخـلـ وـرـوـضـةـ الرـازـقـيـ وـالـرـمـانـ)
تـقـلـ الـاسـلـاكـ وـالـلـاـقـاتـ السـوـدـ وـاعـلـاـنـاتـ الـمـاتـجـرـونـ
الـارـمـقـ تـرـسـ اـمـمـهـ سـمـاتـ مـدـيـنـةـ مـحـذـفـةـ منـ
وـجـودـ..ـ المـوـكـ بـتـخـلـ المـاتـاهـةـ:

هذه ليست ساحة التحرير لولانصب الحرية

هذه ليست ساحة الحرية لو لا النافورة

لَا لِزَنْقَةِ الْبَرِّ وَنَزْ

هذا ليس بباب المعظم لو لا اطلال كلية الهندسة

هذه ليست الصالحية لولا خرائب مسرح الرشيد

ذا ليس جسر الجمهورية لولا انفاض وزارة

ذاليس شارع النضال لو لا اطلال بارك المسعد

الليس سوق الشورجة لولا عبير التوابل والب

حضرتاه... هذه ليست بغداد منذ خمسين سنة

حسرتاه هذا ليس العراق

يا اخواتي الاتيات من نفر واور والوركاء

کیش ولکش و بورسیبا و اشنونا و کالح و نمر و

خطیئة ضربت هواءها منذ اربعين سنة

ترس في نواحيها منذ ثلاثة حروب.

احضرتاه يا اخواتي الاتيات من اريدو واشور

سور شروکین ولارسا و شروبیاک واک، ه

نقاء والشوم والاهراء المملوءة قمحا

كدرة ذهبا والارض المتخصمة جثنا.

Digitized by srujanika@gmail.com



والمتشدون والطبلانون ويقيم الالتزامات بهم، تشنوى الخراف والطبلور وتطبخ ا نوع الرز البخاري والهندي في العراء على حمر حطب التوت وتعد اباريق الشامي والقهوة بين اشجار السدر والنخل ودالة الخليفة المقترن تقدم سرا (ماتما) نسويا للحلاج وتأخذ رأسه المقطوع، تصره بالمسك والعنبر وتكتفه بغلال دمسي وموسليون وترسل رسليها ليڊنوا الرأس في كرخ بغداد قرب مقبرة الشیخ (المعروف الكرخي الصوفى) بينما المغتيلات في قصر ابنها يرثان انشيد الهوى حول سرقة القصدير الجاهليّة... تسمع المدينة العباسية الرادعة تحت مباريك الشاخصة ضجة الحروب وتحترق مدينة الاعمال صواريخ ومتجرات وتهال أثيرية وتتفجر آثار من سرايد القصر العباسى، فيهرُب السكان (التحت ارضيون) الى محله (السامونية) وبخرون من فتحات في (سوق داليال) او عند الباب العلائق للمدرسة المستنصرية، ويعطى في الفضاء المضطرب صوت تلاوة شجية بصوت المقرئ (الحاج محمود عبد الوهاب) ويختن اهل المدينة ان (بغداد) تستعيد دوره جروها وخرابها.

اسمع انين اوابيك الكثيف وتحبيب التواذف ومن (خان مرجان) يتدفق سيل غناه وتأوهات عشق، ومن بين كتل الكونكريت الصماء لاري اعمدة شارع الرشيد تترنح لفوط النساء وفوط النساء... مبان بدان تتلاشى من المشهد، بدران اختفت، ولواب اوصدت، واجساد تبخرت، وانوار انطفأت، وشوارع اوصدت... ساحة التحرير ونصب الحرية تكشفهما شمس آب الملتبيه، والشوارع السطة المتوجه اليهم: شارع الجمهورية وشارع السعدون وشارع غازى وجسر الجمهورية وشارع الرشيد، الكل يولي وجهه شطر النصب العظيم الذي تتخفى وراء قباب من مخولقات الحرب، لاصوص وقتلة ودمنو مدرات وخطافون وسلاميون وقوادون يتباذلون الدوار وهاجمون العابرين في وضع النهار ويشعلون الحرائق على مرأى من الله واهل البلاد.

من ساحة (الخلاني) تمضي بي الخطى شملاً باتجاه ساحة (النهضة) وساحة (الرصافى)، ويزداد كثافة النافورات او تساقط اوراق الشجر، ورثى اميركي بدباباته وسياراته المصفحة بجناح الشارع هادر، ومسائرات المدافع مصوبية نحو المارة، وبغنة يشرع الجحيم ابوابيه، تتجه اطلاقه نحو الرئى ويبدا اطلاق



القائمات ترتعش سعفاتها النخيل وزهور الندى في
حفلاته المهجورة وستيقن التمايل من موتها وتتحرك
الدمى الناجية من ضربات معالول الهدامين
واللصوص. يقون (الوكال زاكبزي) من رقتها وبنهض
(سرجون) وبنادي (جوديا) و(بنوتانلي) ويتحقق بهم
(أشور بانيبيال) و(محمر أيسى) و(اورنوم) وتترتعش
روائح البخور وریز التقدّمات العطر وتعالى الدخنة
ملائكة العذاب والسماء، ملائكة العذاب.

بروك هي ملكة سوسورا، وهي أمي،
يركز (جوديا) الوع في صلاته الطويلة وتمر الصبايا
البابليات بالغلال الشفافة وأطافل الأطهون تتبعهن
أشباح النساء البابليات اللائقات وكاهنات عشتار
عائدات المولد المقدس.

المدينة. تشير العراقة ببدها رفضه فكرة الخروج:
- إنها (بلاك) الحزينة، هذا ليس أوان الخروج إليها..
لم يحن الموعد بعد..

غير أن جوقة العازفات والمغنيات والشباب لا تأبه بما تتبئ به العرافة، فيندفع الجمع إلى باب المتحف، تلتحق بهم حاملات المباسخ والزهور وما أن تظهر الجموع في المداخل الواسعة حتى يداهمها الرصاص من كل حدائق الممت.

تنهى الحشود الأخرى مسرعة إلى مواقعها المعمورة
في المتحف ويعم السكون الذي تسري فيه رعشة الحياة
المؤجلة إلى حين يولد من رحيق الدم والدموع لون
السلام.

الراصص وتنخر دبابة وبتساقط العشرات على
الازفة... ترفع الجثث او تسللها معارفها لو ذواوها
او ترك الجثث المجهولة حتى يتقطع البعض لنقلها الى
مقبرة (الغزالى) او الى أي مدفن مرتجل خارج المدينة.
اسمع من ازقك الطلبلية التي تقوح من ابوابها رواحة
الاطعمة البغدادية الشهيبة واعانى (غوفة اسكندر)
(توار عبد الوهاب) واسمع انين كمان (غانم حداد)
وحسر عود (سلامن شكر) متراجما جنديب الخى
المحتلست من التواذف وشوقى الابواب اسمع من مونولوجات
(عزيز علي) اسمع اغذيات (سليمية مراد) ...
اسمع .. اسم .. اسم ..

بكاء شاسع، بكاء ناعم مموج يصدر عن البنات
الحزينات، بكاء لوعة العاشقات، وبكاء الخيبات، وبكاء
الأسف الذي تتفطر به القلوب شفاقاً من دمار البلاد...
والبنات يختنقن ويعذبن ثم يجري بعيون ناخسية عرب
من اهل الجزيرة او غلة الارثاء وسمور الوقت يتسع
مدى النحيب ويتوارد مع رنين الحلي الذهبي والفضي
ويتصاعد من الأسواق العتيقة حيث باعة السجاد
والجلود والنحاس ويمتد الى الاعظمة عبر سر الاشنة
بكاء عريض واسع يشمل الافق بأكمله يتعالى عندها
امر امام مبني الاستبارات العسكرية (حيث مقرمة
الاجساد) البشرية وغرف التعذيب بتوابيت المسامير
وتوافر الماء والماء والغرف السود والحقنات التي تقطمر

ما عاها بتانية مروعة ونفت دماً ورصاصاً.
اتجه في موكب حزن إلى مرقد الإمام موسى الكاظم
وأمر بباب (المراد) وباب (الدروازة). لأصل إلى سوق
(الاستبر)———ادي، وهناك أجد العرائش يتجهزون
لأغراضهن الوشكية وأسعم الزغاريد مترجحة بالذئب
العنيق بين دكاكين باعة الزجاج وصاغة الذهب وباعة

الحرفي اسماً باسم البقاء القليل المشوش النبرات معدني
الارتفاع ويتناول من اعماق دلالة العظيم عند دعامتين
الجسر الحديدي في (الصرافية) ويمتد ليجتاز
منطقة واسعة تصل الى مقبرة (الشيخ معروف)
الكرخي) والمحلة العالمية (ضريح الجنيد البغدادي
الصوفي) و(بابلون الصوفى) وضريح النبي (يوحش)
حتى يستدركون الى ساحة المتحف ويتبرز لـ سيدة
سومورية تتقدّر بمعاهدة بالاصوات وتتصادم البقاء
لذاته ببيهقة ومحنات ضوء وموسيقى تقلب الذيب الى
انشاء وتحميق يغناطها الى المتفوق.
بغيق المتحف ... تنتقم التوازن العلوية قرب سقوف

* في سنة 2006 قبل الميلاد هاجم العلّامون (اور) المقدسّة التي بناها (اور نمو) اول مشرّع في تاريخ البشرية.

* تمويذة كان يرددها سمو مربون أمام المرأة التي في المخاض، يخاطلها إله القمر سين الذي يرمز للولادة والتجدد الدائم والخصوصية.





كراجات موحدة

لوي حمزة عباس

الكراج: رئة المدينة، الكراج: فنها ومخرجهما، لكن الكراجات تتشكل في واحدة من تناقضاتها، بطبعان انسانيها وممارساتهم الحياتية وأساليبهم اللغوية، خارج نظم المدينة، خارج أساليبها وممارساتها، هذا الخارج الذي أمن لها وجوداً ظلياً في الحياة العراقية، لكنها من النقاط متغيرات هذه الحياة لأكثر من ثلاثة عقود (العقود الثلاثة الأخيرة من عمر القرن العشرين) من دون أن تتغير هي أو غيرها شيئاً من حضورها على حافة الحدث وتقلباته، فدونت وجوه أنسابها، عابرية الأزمنة الصعبية، على أسوارها الملوثة بزيوت المكان والمشيحة برائحة العطانة البشرية وحيوانية، وبذكائها المقفرحة ليل نهار أمام حاجات الركاب: مقاه مرتجلة، غالباً ما تكون عند مدخل الكراج محطة رصد وانتظار، السائق يرقص من على أريكة الخشب المصطنعة ركابه، والركاب-غير المستعجلين منهم- يمططون أوقات انتظارهم، وهي الأوقات التي تبدأ خلالها أغاني الريف بإقصاء الكراج عن المدينة وإقصاء الركاب عن زمنه لتدخله، براحته أو رغم أنه، إلى زمن عام ليس له فيه رغبة أو إرادة أو شرط. أن تدخل كراجاً عراقياً موحداً يعني أن تستجيب لإرادة المكان وتمثل لرغباته وتتصبّح شرطاً بشرياً مكملاً لشروط وجوده، هذه الشروط التي تعانى بإشارة أو بكلمة أو باستكناة شاي مصحوبة بـ(الله بالغير) علامة الآلية العراقية المسجلة وعتبرتها الدخول إلى روح الجماعة، ذلك بعد أن تكمل دورك في مطعم الكراج، حيث الماء لا شيء الماء، والخبز لا شيء الخبز، والطعام لا يتنمي للطعام، وهو جميراً يشكلون وجهاً واحداً لا ترى لو توكل خارج الكراج، إنها جزء من هويته وسلوكها الغور ما يراك المقرب، وأقصد المدن خلفية البريق، بجانح العوائل المفصولة بستاره مزفرة حائلة اللون، براحته الدهن البابت وزفرة البيض في الصباح، بأصابع اليماء وحبات اليابسة الطافية في صحن المرق، والنعنون المعجن أصغر اللون بالشرعية، وصحن الطرضي المازلم لكل الوجبات.

يدخلون المسافر من باب الكراج، وينظره إلى مقهاته، ويجلسوه في مطعمه، يمكن قد أصبح بعضها من مهرجان الظل، حيث ثلوج المدينة ثانية، مقصورة وشبيه غائبة، على الرغم من شعوره بإن شارعاً واحداً لا غير يفصله عنها.. الدخول إلى الكراج دخول إلى زمن مكثف، راقد وصلب وعميق، تتحاطف فيه أشباح اليابسات وأشباح الناس في حركتها اللاثبة، حركتها

رئة المدينة

إنها الكراجات، إحدى البوابات الواسعة للدخول إلى الحياة العراقية، لقراءتها والاستباق معها، وهي على الرغم من أهميتها ما تزال شبه غائبة عن الوعي التثقافي المعاين، بينما هي غائبة عن العناية الدينية بمختلف أوجهها، كانها تحافظ بذلك على إقصاء عاشت تحت قلبه، واطمأنت له، بممارساتها وأخلاقياتها وأساليب حياة أنسابها، حتى تبدو كأنها ليست ببعضها من جسد المدينة، وكان أعمارها ليست من أعمار أبنائها، فالإنسان، في النهاية، نتاج الأماكن التي عاش فيها، روحها وصوتها ونبض سورها، وهي تواصل الحياة داخله بعد أن عاش في فللها وخبر دواخلها. إنها بعض المدينة الحي، النابض والمتحرك، ينبعصه وحركته ينبعق قلب المدينة وتتحرك أعضاؤها، تحيا وتمتد وتنصل مع سواها من المدن.

وتحولها إلى ما يشهي المدن على حواف المدن، فقد أُنجب المطعم مطاعم حافظت بأمانة على طبيعة أكل الوجبات، وأُنجب المقمي مقاهي ولدت جمعها بـألاك مضمضة واستكانات لا تستقر على الصخور، وفتحت نوكيين جديدة لجاجات لم تكن موجودة من قبل على الألاحة طبلات الركاب: مالبس داخلية وجواريب ومناشف ومنادل لم ينوجه من البيت إلى الجبهة، وعطور نسائية ودشاديش والبسة طفلاء ولعب رخيصة لمن يعود من الجبهة إلى البيت، لم تكن ماحسبة في ذلك، لكن نوكيين لسد حاجات عابري الليل وعابري النهار فتصبب خارج الوجبات مواقف شديدة عليها بطانيات قوية يومية مقلمة في القالب، أو صفت عليهم مصران البردي أو قطع الكارتون، وجلس تحت ظلها النهاري وففي أنوارها المسائية باعة وبائعات خلف بسطات السكاكير والكرزات والحلويات، خلف صناديق البيسي، وصافت على أرضها صفات الطلاء المطعجة، يجلس على كل منها الناس، أمم (الغربيت)، عين النمار الغازية النافقة، وشالون البيض يقلقي في ثوانٍ ليوضع بما عليه من دهن فوق صخون الخبز والبلاط، وفي الصعرو جلسات وبائعات التفیر الفتيات يحولن لهفة الجنود تقتنة صباين إلى وجهات الفطور التي تبدأ بعد منتصف الليل بليل: صuron قمير معذنة متغيرة، وصمون، واستكانات شاي ترى بقع الدهن على جوانبها وتحمس النسم في طعمها.

صلائف الكاحنات

لكلّ إيجات العراقيّة الموحدة طوابع متماًلاً للبشر، ولكنّ منها لونه وشكله ودرجة مهوريته، وهو ما لم تستطع التسمية الرسمية أن تمحوه وهي تصريح الحياة بلون واحد وتنمّها شكلًا واحدًا لا في سبيل تحقيق مدنية تجتمع الكلّ إيجات (**الموحدة**) وتقطّم أنواعها في جهوة المدن والناس، بل إنّها مقدارًا مقاربًا من المهمورية والغراب، لكن على الرغم من إرادة التسمية يبقى لكلّ كراج منها حضوره الذي يختلف قليلاً أو كثيراً عن حضور باقى الكلّ إيجات: من كراج كركوك إلى كراج الموصل، ومن كراج بغداد إلى كراج الحلة، ومن كراج كربلاء إلى كراج النجف، ومن كراج الكوت إلى كراج الناصرية، ومن كراج العمارة إلى كراج البصرة، ومن كراج البصرة إلى الموت المتربيص في شرقها وخوبها، هكذا رسمت الكلّ إيجات بمسرى حياة العراقيين خلال سنوات الحرب (أيّة حرب وأيّة سنوات؟)، هكذا تعيد خرائط الأقدار رسم العلاقة بين الإنسان والمكان متماًلاً تعيد توجيهها وأسلوبها إشارتها، فتوحد كلّ إيجات العراق في تحديقها نحو جهة واحدة في هواجس الجنود ومخاوف أهلهم نهاية طريق انتقام واحد، قلّيس من إياض على طريق الحرب إلا

عيّبات العَدْم

لكل راجات أذرعة، أذرعها الشوارع، تمتد عميقاً في جسد المدينة، تمتد بعيداً عنها، فتبدو المواقف على الطرق الخارجية، ونقط التفتيش والسيطرات بعضها منها، جزءاً الجحيمي الذي يبتلع الإنسان ويدفع به إلى

على الرغم من عفن سنوات الحرب وعمقأساها علينا أن ندون الحقيقة الاقتصادية الآتية: تتعش الكراجات في سنوات الحروب، ذلك ما أدركه العراقي وقد رأب لما يقارب العقد من السنوات ازدهار الكراجات زية

الوطني، فقد لعبت الكراجات الموحدة خلال سنوات حرب الشانطينيات دوراً مؤثراً في زعزعة الشعور بالمواطنة لدى الإنسان العراقي، مثناً خصوصاً مفهوم الوطن فيها للنقاء والضياء، فهي بارتها على الحافة الشعورية فاصلتا بين البيت والجبهة، ومحضنها حاجزاً زمنياً بين سخب الحياة المدنية يأسوّقها وبثارتها ومتذمّرها وبين صمت ليلي السواتر المتذرة توقد شعوراً عميقاً بالعدمية يتعزز في نفس الجندي بجازة بعد آخر، وستة وراء ستة، وتعزيز شعور أعمق منه بالalarجاء، قليس ثمة ضوء في ليل الحرب المعتم الطويل، وليس ثمة أمل وقد تحول الوطن نفسه إلى مسكن قاهر يأوه ومحذرهاته، وتقطعت طرقه، الرئيسية منها والفرعية، بما لا ينتهي من المغارز والسيطرات، الأمر الذي عمل باليته على تبيّد كل ظل داخلي لمعنى الوطن عبر تمزيق طبيعته الشعورية التي تختفي بما هو شخصي إلى حد بعيد "ليس الوطن هنا ولا هناك، إنه في داخلكم، أو لا وجود له البتة" سيموس العوال الأيدي، بدوي الكلمات المضبطة هرمان هيسيه من وراء المشهد الذي تشكّل الكراجات الموحدة لحظة الذروة فيه حيث ينسخ الجندي فيها من حياة ليدخل أخرى، ينجز في كل التحاق أمّاله ورغائبه ليليس الخاكي مختلفاً راه وطننا من الشهوات، الكراجات: بوابات الليل، الكراجات: عتبات العدم.

من غيب لحظته الصامتة سيرى رجل المقهى الأجادس الخطأقة وقد انسحبت من أمامه، تلاشت في فضاء الكراج لتخل محلها أحجار رحولة متلاحة تلقنها جيماً ثياب رتابية بلا جيوب ولا أزرار، إنها تقدم بخطى مسلبة، روانتها تفوح فتقتل الهواء، روانة رجال مجدهم سريعاً ما تكتف لتفتح قليلة بستانة مدرحة إلى درجة يصعب معها التصديق، إنها تعود لأجداد حيَّة، لكن الرجل برى الأجداد تواصل اندفعاًها ثم ينتبه إلى وجهها فيرعبه غياب ملامحها، إنها تندفع من دون أن تسمع أو ترى، من دون أن تتألم أو تخنق قبل أن تنغب هي الأخرى في ليل الكراج.

إشارات

ومثناً يتتشكل لاوعي الكراجات العراقية طبقات متعددة يطرأ بعضها فوق بعض، يطمر بعضها ببعض ويغتيب إشاراته عن علن الممارسة اليومية، تعيش هي وضعاً طبقياً في تدرج أماكنها وألوانها فأعلاها بناء



منطقة العتمة من حياتها.

لنعيد تدوين الفكرة: إذا كانوعي الكراجات العراقية خلال سنوات الحروب يمثل في قدرتها على تقديم أنفسها مذناً على حراف المدن، تتشيّأ سواقيها ومحاجنات ليتها ونهارها، فإن لا وعيها يتركب من طبقات تبدأ من موقع الكراج نفسه، من زواياه المتربوكة، من جهة المظلة، ومن سيارات القسيبات والتواحي البعيدة حيث لا يذكر ما المرء إلا بينما يدخل الكراج، ولا تنتهي إلا في سجون الفيالق والم العسكرية، تلك إشارة تقلّلها في فضاء الكراج أفقاً إيفاً العائنة لأمرية إضباط الفيلق أو الفرقة وهي تتوقف من دون وقت محدد أمام الباب فتغير متوجهات بعض الجندي بخطوط القسوة المستيقنة من الوحدة إلى السجن بدلًا من خطوط رغباتهم من الوحدة إلى البيت، حيث يقع الكراج، على الدوام، في نقطتين متقاطعتين: في النقطة الوائلة بين الوحدة العسكرية والبيت، والنقطة الفاصلة بينهما، لكن مكمن الغرابة هو في انتقاد الجندي بعد كل إجازة للتوجه إلى الكراجات الموحدة وإعادة دورة العدم من جديد، كأنهم يستجيبون لإرادة علوية تدفع بهم بإشاراتها الخفية إلى بوابات الرماد المفتوحة على الجبهات ليل نهار، كان كل منهم يعلم إمكانية أن تكون خطوطه الأولى باتجاه الكراج خطوة أخيرة ينسّل فيها من نسيج الحياة، لكنهم يحظونها، على الرغم من علمهم، معجونين لحظة بعد أخرى في ماكنة الإذلال



طبقية المهام والوظائف، فالكل杰ات الموحدة لا تختلف إلى الخلف، ولا تنظر إلى الشوارع الضيقة، شوارع المناطق وال محلات، تلك مهمة الكلاجات الداخلية التي لا تكون بضجيج أو قتالها وعجلة الناس فيها أكثر من حلية في جسد المدينة، في حين لا يكون الكراج الموحد إلا عضواً من أعضاء جسدها، وهذه يملك حق النظر إلى البعيد مخترقاً بسيم نظرته الصخاري والهضاب والأنهار والحقول، وحده يملك أن يؤمن صلة المدينة بالمدن الأخرى.

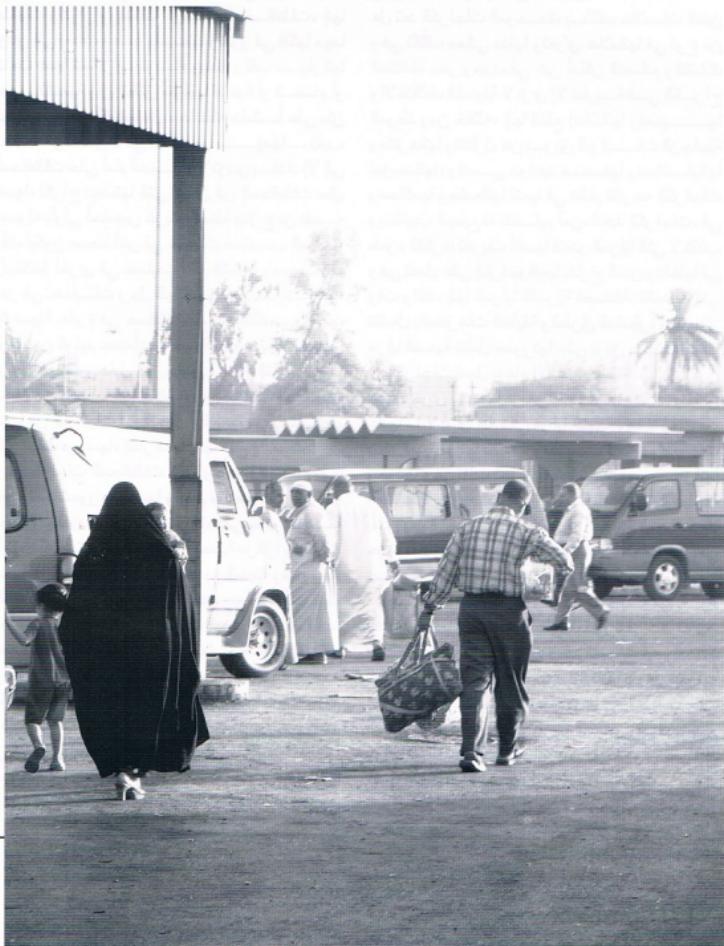
هل تعد الكلاجات الموحدة، بذلك، خلاصات المدن وهي تكفل معاني مدنها وتعرّي علاماتها في نوع من المكافحة يندر وجوده في غير أمكن التصالن والتباين والاختلاف، فالمدينة لاترى إلا عارية في الكراج الموحد ومن ثم، إنها تخلع إعلاناتها ونصبها ومنتزها وتنازل عن بريق الوابرات الزجاجية لمؤسساتها، وتتسنى مواعدها صحفها ومستشفياتها ومحاكمها وجامعاتها لتتحيا في نظام تقتربه الكلاجات وستجيب الجميع له بتسليم أمر، لتعبد الكلاجات، في ضوء الفكر، تعريف نفسها تقدّر المرايا التي لا تكتب وهي تعمل على إثارة مواقعها خارج المدن وداخلها في وقت واحد، إنها المرايا القسرية الصادقة، فالمدينة التي تشقق بالمنتزهات النظيفة والطرق المشجرة والجسور مرايا كقصيدة تتأمل صورتها على بريق مجدها، تنسى أن الكلاجات تعمل بدهاء الأماكن المبعدة على أن تكون هي الأخرى وبعضاً من مراياها، مرايا البهجة وما لا يُحب من وجه المدينة، إنها تلخص واحدة من موضوعات وجودها وهي تقلّب نحو لأنها كما تقول وجهي عزالتها ومشاعرها خارج التقاضي اليومية للمدينة تبتعد ملحقة بمدن بعيدة أخرى.. نحن لا نتمنى الكراج الموحد إلا حينما نفكّر بالسفر، فهو يظل غائباً عن آذاننا حتى في حال مرورنا اليومي به، وهو يستمر هذا الغياب محصناً خصوصية عالمه وموكداً إسحابه من حياة المدينة، بينما يؤكد قدرته على المناورة في دخوله بين أماكنها المشاغعة حيث تتدنى اللهجات فيه وتنحالط الطبقات وتتكسر خصوصية الأفراد، إن عمومية الكراج الموحد تفرض نوعاً من العمومية على المسافرين والباعة والسماسرة والساقيين، إنها تسحبهم جميعاً لمناطقها.. في الكراج ليس بإمكانك أن تحافظ على رغبتك في أن ترى وتشمع وتنتفق ما تشاء، إنك تنزال حال دخولك بوابته عن شروطك الشخصية

على عظمي الكثافة السكانية والموقع الجغرافي، وهي، بذلك، تقسم قسمين تبايناً يحسبهما أدوارها ومهامها: الكلاجات بغداد، بالنسبة لباقي المحافظات، والكلاجات الداخلية، وهو ما يمتد في دور العاصمة العراقي ويتواصل أبعد منها، فالكلاجات الرئيسية في محافظات العراق كافة تسمى كراجات بغداد، ويسمى كراج بغداد الرئيس باسم موقعه ومتنه ووجوده، كراج البهضة (ألا يدري ذلك في حكم الطبيعي؟) ليلوط واحداً في تسييه، الواحد في دوره ووظيفته، في حين تشييه تسميات وألوار ووظائف كراجات المحافظات، إنها تؤدي إلى بغداد، تحسياً باسمها وتدور في فلكها مما تناولت عنها شمالاً أو جنوباً، ويقطل راكب سيارتها حبيس التسمية وإن لطلق متوجهها لاذحة أو قضاء أو محافظة أخرى، كما تنتقل محافظاته هامشياً على متن العاصمة وانحرافاً في مسير سهلهما.. تغيب المحافظات حتى أيام نفسها ولا تؤدي ببغداد إلا إلى نفسها، لكناج نهضتها التي تشنح ابن المحافظات حال وصوله بألوار أحاسيس غريبة، لحظة يتزحزز من نفسه وأناه ليكون صحيحاً آخر في حسابات صاحب المطعم، واستثنائية أخرى في حسابات باطن الشاي، ومستخدماً آخر في حسابات رجل الهاتف وعامل المرحاض، وتصويبة عابرة في حسابات سائق التاكسي، على الرغم من كونهم جماعاً: صاحب المطعم وباطن الشاي ورجل الهاتف وعامل المرحاض وسائق التاكسي أيام محافظات (جنوبية في الغالب) وإن تبدلت ملامحهم.. إنه درس الكلاجات في التعلول والتبخل والانسلاخ، فالكلاجات دروسها، إشارات حياتها التي لا تموت، تؤدي كراجات المحافظات بدورها وظيف من نوع آخر، تعيد شعورها بنفسها وتنظم موقعها على خارطة طبقة الأماكن وألوانها، فهي تظل بالنسبة لأبناء القصبات والتواحي والأقضية مركزاً ينضم إلى حد ما حركتهم ويعضي علاقتهم بالمدينة وأنسابها، فالكلاجات بالنسبة لهم عبات المدن وبوابات حياتها، فيما تحدث أولى صدمات المغایرة والاختلاف، إلخالف الأزياء وال Leighas والأسعار والقيم، إلخالف الرجل عن الرجل والمرأة عن المرأة، وفيها تتجدد وظائف تختص بها المدن، مثلاً بيع الماء أو بيع أوقات الراحة في المرحاض (هل هناك من بيع الماء في القرية أو يقبض ثمناً مقابل دخول مرحاض؟)، بما يسحب الكراج من فلك بغداد، يخطف من هيمنتها عليه ويعده إلى نفسه وموسيه ومدينته ليؤدي دوراً آخر في

يتحول الكراجات وتغير قاعديتها، من الامان حيث ترمي في كل تخطيط ضاري، لحكمة عمرانية، خارج شبابيك الطرق وللامتحن المناطق السكنية، إلى المركز فتتغير معانٍ وتبدل تصورات وهي تتلاعب بقيم المدينة وتعيد ترتيب مقاصلها ليصبح المكان المطروح يقصد للأماكن جميعاً، إنه المكان البورة، حيث تلتقي المقاصد وتتوزع الطرقات، وحيث ينشأ حوار كلاته الناس والأشياء بين الكراج الموحد وبين باقي الأماكن

لتدور في ذلك متنس يحكمه المكان نفسه بما يقتربه من ممارسات وأخلاقيات.

للكراجات ما يخصها من ملامح المدن ومن قسمات أزمانها، إنها تتعدى موقعها على الخارطة لتحتفظ بموقع معنوي أكثر هيبة ووضوحاً بما يملكه من تأثير في حيوات المدن خلال سنوات الحرب وسنوات السلام على السواء (هل من سلام، حقاً، في سنواتنا؟) وهي ترعي نوعاً من العلاقة الجدلية مع مدنها، علةة تتحول



لصبعها بعد أن مررتها على أدوات الحلاقة ومجوهرات الأسنان وقد أعادت ترتيب بعضها لأشيء لإلتقطي نظرتها الأخيرة فتفذى شعور الطمأنينة في دواليها، الشعور الذي لن يكتفى إلا بالسماوة وهي تسكب وراء المسافر وقد شفقت ضوء الفجر من فوقه.

سيعود المسافر ببرقة المياه المسكوبة ويقطع طريق الكراج الموحد إياها وقد فصلت بين المسارين وجوب العربية وأماكن وطرق وسيطراته، تعلمت في نفسه هذه المرة رغبة أن يلمس اليد الحانية الرحمة وستنقلي تحت ساماتها (هل يُعد الكراج شعرنا بالمنزل، وهل يُعيد أيام أنسنتنا معنى علاقتنا الخاصة بالناس والأشياء؟.. أتحدد عن اليد والمياه والطريق قبلهما لأنكوا أن الكراج يتغير هو الآخر بتغير الزاوية والدور والوقت والمنظور، فالكراج الذي ذهب إليه هو غير الكراج الذي نعود منه، والكراج الذي نراه من الخارج هو غير الكراج الذي نخطوه داخله فتصبح بعضنا من فضائله العابرة.

يواصل رجل المقهى من على أريكته النظر إلى شباب الناس وهي تختلط على أرض الكراج، نساء ورجال وأطفال، منهم من يلتقط في مروره الخاطف، ومنهم من يواصل من دون أن يعا أو يلتقط.. إنهم يركضون، أبداً، في ليالي الكراجات ونهارتها.

ما لا يعد من الوجوه

ليس للكراجات وجه واحد، إن لها ما لا يعد من الوجوه، كل راكب وسائل وبيال ومتسلول وحارس من ركبها وساقبها وباعتها ومشتولها وحراسها وجهه الخاص، كما أن له زمانه وشتاً ظالياً ذكرياته، الكراج: ذكرة المدينة، الكراج: مرايا أعمال أنسنتها، وهم جميعاً يعرفون أن مكان الكراج ليس وجهه الوحدى إنما هو وجهه المعلن من بين حيد الوجه، فإن له وجهها مضمنة لا يعرفها العابرون ولا يدركون ملامحها، وجهه الدسائس والعلاقات المتباينة التي لا يكون الكراج فيها غير بورة لاصطياد الجسد، لعرضه والإتجار به، ومتى كان للكراج وجهه الثابت فإن له وجهها متحركة هي الباصات الكبيرة التي لا يمكن لأحد أن يحلها، إنما صادفة، لتغير الكراج الموحد، إنها الكراجات ماشية على إطارات، من خالها يقترح شكل آخر من أشكال العلاقة بين أصحاب الكراجات أنفسهم: سائقين ومساعدين ودلالين وأصحاب مطاعم ومقاه ودكاكين

على اختلافها وتعدد مهماتها، ستكبر نقطة الكراج على الخارطة مع توالي الحوار ليغدو الكراج مدينة من نوع خاص لا تنتهي على نحو كلي للمدينة التي تحيا داخل حدودها الإدارية وتنسم باسمها، ففي الكراج شيء من كل المدن التي تمر بها السيارات المتوجهة إليه من لهجاتها وأزيائها وطبلاتها ووجوه أنهاها.

الكراجات الموحدة: خلاصات المدن، مراياها المضادة، ملادات عزتها، ساحاتها المشاعة، هومايتها، مراكزها، ظواهرها، بسوطها، أصواتها، صمتها، أسرارها، علنها، تلقنها الذي لا يزول.

يفكر رجل المقهى بالحياة من حوله، بشظاياها الدقيقة المنتاثرة وبوجوه أبنائها وهي ترسم في فضاء الكراج الملوث بروائح العوادم ودخان السكاكين وأفاس الناس والمطربوكات، وجوه سريراً ماتختفي لتختلف أماكنها لوجوه أخرى تعمق في مساحات من القرية الواسعة، ما زال الاستكنا امامه قريباً من الحالة الشيشية المشبعة ببقايا الشاي، لا يذكر أنه رأى مسيحي المقهى خطوا باتجاهه، لا يذكر أنه سمع منه (الله بالخير)، لا يذكر أنه رد عليه، ربما برأسه الشاي الآن، يفضله لاذعاً سكيناً الطعام، يتذلل برشقته الأولى، وهو ما لا يوجد، أبداً، في كراج.

الطريق إلى الكرام

السير باتجاه الكراج هو غيره بمعارفه والخروج منه، إذ ينطوي كل منها على مشاعر خاصة تختلف أو تتقاطع أو تتصادم مع مشاعر الآخر، فالسير باتجاهه يعني مغادرة المنزل والمدينة والانفصال عنها، والخروج منه يعني السير باتجاههما والتغلب في محيطهما العاطفي، متى يحصل كل من طريق الذهاب وطريق العودة تصورات شتى يحركها الانفصال عن الكراج أو التوجه إليه (على الرغم من أن الطريق هو نفسه في الحالين لكنه لا تقطع الطريق مرتين، ثمة شعور يتغير في نسق كل مرة) كم من سائر باتجاه الكراج الموحد يتعلّم داخله شعور بالطمأنينة مبعثه المياه المسكوبة وراء عنبرة البيت، هذا الشعور الذي يدفع الأم أو الزوجة أو الأخت للنهوض في ساعات الفجر - وهي الساعات المناسبة للتوجه للكراج في السفر الطويل خاصة - لتشغل في نصف بقظتها بالتأمل من وجود لوازم السفر الضرورية بعد أن هيئت أول الليلة السابقة، بدها الدافة تغلق الحقيقة وما زالت لمسة المنشفة والشرشف والملابس المنزلية على

خاص بين السائق ذي المقد ووالهيلمان وبين الراكب الذي لا يملك غير قوة جسده ورجله روحه الذي لا يُسمع. يفتح السائق باب الباص، ويقرب جم الركاب سريعاً، يصعد السائق إلى قبرته، يجلس على كرسيه، ينظر إلى الركاب من وراء الزجاج النظيف، يشغل المحرك، يلتحم الركاب لحظة التشغيل بالباس، يتلقفون باليابسة، السائق يواصل النظر فلا يرى غير وجهه محققنة وأيدٍ تلوّح وأجساد تصدر، الباص الفارغ يتحرك بطيئاً في إشارة تذكرة فربما كان أحدهم قد وضع قسمه من دون أن يتبّأه أحد الإطارات، حول الباص ومعه يتحرّك الجميع، كانه والجمع لا يتحرّك، تتصاعد سرعته وما زال الناس متلقفين به، متجمعين حوله، ينطلق وسط الزحام الذي يشق سريعاً، يتساقط من حوله أنس ويعلق به آخرون ويحلّول آخرون للحاق، السائق لا يلتفت ولا ينظر إلى

وسيطات وباعة راجلين ومتسلّين، وبينهم وبين الركاب، حيث يخضع نظام كامل من العلاقات الإنسانية لإعادة تنسيق قيادتها درجة اجتماعية وترتفع أخرى. للراجات معاييرها وأزمنتها وخطوطات قيمها التي يمثل سائقو الباصات مراكز أفعالها ونظام حركتها (سائقو الباصات على نحو خاص، فكلما صغر حجم سيارة نقل الركاب تغير دور السائق فيها وقلّت إلى حد ما هويته بستة على محدودية عدد الركاب ومكانهم الاجتماعي، وارتفاع ما يدفعون من الأجر، وإن قسي محافظاً على حضوره المركزي على طريق السفر)، ملاكيّن كانوا أو أجراء، إن يقلّ ذلك من هويتهم على حياة الركاب وإن يخشى شعورهم بالسلطة خصوصاً في أوقات الأزمات، وما أكثرها، وقت تقلّ الباصات لسبّ أو الآخر ويعتني الكراج بجموع الركاب فتبدأ لعبة إذلال من نوع هم



الكرياجات بالجنس الناعم بشكل خاص، حيث تم بجلوس النباتات والنفسوا على هذه الكراسي لإرادة المسائق وتكللها مراسيم سلطتها... يحدث أحياناً أن تُنقل هذه الكراسي ببعض ضيقات الجيش من ذروي الربت المتوسطة في نوع من التقاليل الرمزية للسلطات: سلطة المسائق مقابل سلطة الضابطين، تتعزز الأولى وبالتالي وتستترخى الثانية في ظل اعتراف الأولى ورعايتها، لتعيش السلطان لوقيات زهورها على امتداد طريق الرحمة مثلاً تتشكل طبقة العلاقة بين المسائق وبين باقي الركاب بحسب موقع الجلوس تقطل خانة الباص الأخيرة مكرورة لا يجلس فيها إلا مكر، بينما ينظر إلى الواقفين بوصفهم ركاباً من الدرجة الثانية وهو يستريحون، بناءً على هذه النظرية، مشقة الوقوف لما يقارب الساعات العشر خصوصاً في المسافة بين المصير وبغداد، أو أقل من ذلك بالنسبة لركاب الطريق، وهو لا يدفعون في النهاية إلى انخفاض الأجرا.

المساعد دور في مملكة الباص، إنه يؤدي دور ظل المسائق، يدده وعينه وسلسلة، من دون أن يأخذ من سلطته، يظل المسائق على امتداد أزمنة الكراجات سائقاً ويظل المساعد (سكتاً)، بما تعنيه هذه الكلمة في قاموس اللغة العراقية من ثانية ودونية واستغفار، وربما باللغ المساعد في توجيه الركاب وعطف بعضهم وتطرفه حتى أساء، لكن توجيهه وتعنيفه وإيساعه لن تخرجه من حقله في حياة الكراج ودرجته في سلمه الطبقي، لذلك ترى المساعد يتحقق في حركة المستمرة داخل الباص يمكن المسائق مقترياً خالل الرحمة منه، مخترقاً موقعه ومتعمقاً ببعض مزايا سلطنته، بانتظار الزين الذي يتحول فيه بطريقة أو بأخرى إلى سائق فيخرج من ثانية ودونيته، يفتح الباب ويصعد إلى كرسيه ويسمك مقدوه وينطلق بالباص والناس من حوله يتساقطون.

خارج الباص ما يزال الرجل جالساً على أريكة المقهى وقد غابت أشباح الناس من أمامه... إنه ينزل في أوقات الكراج، يغور في بئر أزمانه المعتمدة، محولاً الإمساك بتفاصيل مشهد والتقطاً وقائع حياته الحاضرة منها والعائنة... موته سعدي الحلي ويانقاطع أغاني الشجن، بانطلاق الباصات بعيداً عن مظارات الحديد العالية، وبخلو قبور الطعام، وخلو أباريق الشاي، بغياب بائعات القهوة، وباغفاءة بائعي البيبيسي والسكافر والكريزات... يفك كم تحتوي أماكننا من أحزان.

ويحاول آخرنون اللحاق، المسائق لا يلتقط ولا ينظر إلى إحدى مراياه وهي تعكش وجهه الناس في سقوطهم واستنقاثهم وتقطفهم وجهها بعد وجهه، إنه يلتقط بعينه الداخلية صور إذلاله التي لا ترى بمعنٍ هذا الوضوح في مكان آخر، إنه الأذلل بطبعته العرقافية نادرة المثال يتكرر على أرض الكراجات المودة.

إنها ليست لحظة الوحيدة التي يكون المسائق فيها مركز الحياة الكراج، كما إنها ليست لحظة الذروة الينتية في علاقته مع الركاب، إذ يظل موقعه الوظيفي في مقمة الباص بالنسبة للجمعية علامة سلطة معلنة، هذه السلطة التي تؤثر مكانها وتمتنع موقعها فخامة شعبية واضحة: سائق ومراروخ وعلب كلينكس وزهور بالاستيكوك ودمي وصور (فنانين وفنانات أو لرجال دين وأولياء، بحسب هو المسائق وإيمانه ومزاجه وغيبته) وأقداح ونظارات شمسية ونظارات شفافة ملؤته وغطاء من خرز مضمور على الكرسي فضلاً عن أثواب

مستثير من الأنوثة (باصات النساء خاصة) يشكل حدوداً حول مكان المسائق لا تختلف. يتحكم المسائق كذلك بما يسمع الركاب من أغاني أو أخبار أو آيات قرآنية أو رذات أو عزاءات، تدفعه أو قاتل الرحمة ومناسبتها لتتوافق اختياراته وللاملاحة كل منها لوقت دون سواه، مثلاً يملك وحده أن ينعم على الركاب ببعض مكيف الهواء (وهو اختيار خصوصاً في شهر الصيف الحارقة لا يعتمد من دون شم، فأجرة الباصات المكيفة تختلف عن أجرة غير المكيفة)، كما يتحكم بأوقات التوقف وأماكنها ومطاعم طرق الخارجية التي يختار الركاب الاستراحة والأكل فيها، إنه عالم قائم من التفتز داخل الباص وخارجه... يحافظ على التباين بين المسائق والركاب، فهو لا يتزاول وجنته في الصالحة إنه يغيب داخل جناح خاص ككتب عليه (السواء)، كما يقدم الطعام، في نوع من تبادل الصالحة، وجبة مجانية خاصة به وعليه سكافر (سوداء من طول خالل الحرب، وعليه سكافر أجنبية تراعي فيها رغبة المسائق خلال سنوات الحصار)، فهو الذي يملك أن يأتي للمطعم بسيط لا ينتهي من الزبائن، وما على المطعم إلا الإهرار بـ«تمازه» سنانة على اتفاق مسبق والاعتراض بدور وسلطته، هذه السلطة التي تتمدد إرادتها على مجل الركاب ويلوح تأثيرها واضحاً على الكراسي الواقعة خلف كرسي المسائق مباشرة، ففي الغالب تحجز هذه الكراسي لـ«العوازل»، وهي تسمية تتناقل من مجالها الاجتماعي المعروف لتحتعدد في لغة



في سطوة المكان

بصمات على الحجر

محمد سعدون السياهي



إذ كان الافتراض من جدرانه وبواهاته وفقا على إقامة قليلة من القوم. وفيما يشبه الحكم شاهدت مقطعا من افلام الاشارة: كسرى المخيف من مرعوبا تلقى دوامت الغبار وسط مجموعة من السقوط والغلال هائلا على وجهه من دون توقف يقطع المدن والقرى السياسية من دون ان يجرؤ احد على استئصاله، هاربا بكثرة النفسية وقد يختفي عن اول فقرة على حاشيته، تلاحقه شلة من مائة فارس من جنود الفقاراء.

الامر ذاته بالنسبة لقاعة المسقطلة الرحمة المتبقية من ذلك القصر المنيف العاذل الملك الاسطوري الاشوري في منطقة التمرود، حيث عثر (مالوان) في اثناء تنفيطياته مع زوجته بذلة الاقاصيص الولويسية الشهيرة (اجاتا كركستي) في قبر الاسطوري المضفور بالاجر على تحفة غالية في الحرف لرأى فتاة اطلق عليها تسمية: مونالي العراق!

عد المدخل الرئيس للقاعة، حيث يثير المطلع والخوف مجرد النظر إلى هياحة الحارسين العمالقين بسواتهم النظيفة، وهي تحمل الهراوات القتيلة المنحوة من الحجر الصلب، على الرغم من معرفتنا الآكيدة أن الحارسين وهرأوتيهما أليسا سوي رسمن مسحونين إلى الأبد منذ أزمنة مغولة في القديم، على لوحتين من الرخام المنبت في مثل بياض الثلج وتقربهما يقف يقططا على نحو مهيب حارس الملكة ومملوكها (أشماش) التور المجنح ... الكثير من تلك الالواح الشنية مرمية بيهالماز موضع على الأرض، إذ كانت من دون شرائط تغلف بوابات القصر ومراته ومخدعاته برسومها المحريرة الحافلة بمعظاهر متوقعة لطقوس الآلهة الآشورية وحفلات صيد التور والأسود والدببة والوعول، وكذلك الملاعك الطاحنة التي قادها الملوك الآشوريين بما عرف عنهم من شجاعة وفروس في قنون القتال.

غير أن هذا كله أليس برأيابا، إذ لا يزال إلى الآن سوي نخلة جراء دائنة تتضمن مثل رمح طويل وسط المساحة المجهورة لازمة كانت في يوم ما تجع بالغورد القادة من المالك القربيه والبيعدة محملة بهالديا وكل ما شاء أن يهدىء غضب الملك-الله.

وفي حين كان جمّع من اباء المرید يلتقطون صوراً تذكارية في باحة جامع الملوية، اترکهم حيث الباحة على اتساعها مكتظة بـاحتقال مهيب: الخليفة المعتصم وقادة جيوشة ورجالات الدولة العباسية وجموع غيره من الناس، كلهم حضروا مابكرون، ثمّة قيل ضخم خطى بـتدار ارجوانى عليه رجل كان قد فهم قبل اكثار

لرأي الصرح التي كانت ذات يوم عينية، وقد تحولت إلى مجرد اطلال. وقع جار على روحِي.. لذا فأننا دانهَا هرب منها كلما كان ذلك ممكناً.

اذكر ابني اوشك على الاغماء حين
شاهدت اول مرة الصرح المسمى: حصن
الاخضر، اي اخضار هذا وهو الذي يلومن
الجحيم؟! كنت اهذى وانا اخطب في مكوثه
العجب. متى ولماذا اقيمت هذا البناء؟ كيف
ومن اين جاءوا بمواد بنائه؟ من الذي امر
بتشييده ولائية غاية وسط هذه السهول
الموحشة؟ ومن المهندسون المهرة الذين
خططوا واسفروا على وضع تصاميمه
والبناؤن الاقوياد الذين نفذوا المهمة على
هذا النحو من الابهة والمتانة والفاخمة؟
حين رزت طلاق كسرى غرفت في موجة من
الضحك بطعم النحيب! اذ لم يكن بمقدوري
ان افصح عن معناها للذين كانوا معه.
الضحك كان بمثابة السخرية السوداء من
لعبة الحياة التي تجري في الاغلب الاعم:
عمياء سانية ومرتبكة ايضاً، لا بل بوضوح
وفطنة وقصدية معاً! اذ رأيت راعياً يتبوأ
وشياطه في حرية مطلقة ولا مبالاة تامة في
مكان اعرف من خلال كتب التاريخ انه كان
ذات يوم بعيد من المستحيل ان يرتفع فيه
كان ما صوتة باستثناء الامبراطور، فضلاً
عن الدخول اليه...

ضحكنا وركضنا للنلحق بالباص.
والامثلة في اور وبايل والسماء وكركوك وعكركوك
والكوفة كثيرة حتى لتحسب ان العراق متحف قبل ان
يكون بلدًا!!

ذات مرة كتلت الصديق الشاعر كمال العبدلي نجحت
عن باعة (عرق الهايب) في واحد من ازقة منطقة
الميدان المجاورة لسرىي الحكومة العثمانية المدمرة،
فجاء استوفيني مشهداً بمتابة حزن الاحزان بعد من
البيوت القديمة تبتلى بقلاليها عن عز زال وجده ذهب
ولن يعود، وقد انهارت سقوفها وتهشم زجاجها
وانتشرت انزع الزمن الشرسة المستثار عن الشبابيك،
بل والشبابيك نفسها. فأهست الجدران مثل صوف من
الكتالى، منغفرة في صراخها المقيم. وشمة ايواب كان
 مجرد مرور الغرباء من امامها من دون عرض مقبول
 يودي لعقاب صارم، الايواب مخلوعة تتارجح لعطسة
 فقط، تتبرول عليها الكلاب السائبة والمارة والمسكارى، ة

من ألف عام اسباب اقتتل البشر فيما بينهم، الفساد
والنساء، فثار لإشاعتها بين البشر، غير أن المعتصم
جهز (الخدم الفتنة) جيشاً زوج فيه حتى طباخه الخاص
وسياقه وحوزيه... الجلا... يقطع بسيفه اطراف (بايلك)،
ويأكل في رباطة جاش مثيرة يرش دمه على وجهه،
يتضليل الجلا... ليطلب هذا؟!

ييترسم (الخرمي) في ازدراه بوجه الجلا... ويقول:
ـ كي لا نظروا ان شحوب وجهي بفعل التزيف، يعني
انني خائف منكم.
يقترب مني القاص نعمان مجید، واسمعه يقول بنبرته
العدنة:

ـ السياهي! ما بك ساهما؟
ـ هل قرأت كتاب البلاكي؟
ـ كلاء...
ـ إذن، كيف صرت شيئاً؟



ما تبقى من مدينة الشمس: الحضر

معالجة بالمرأه والصابون، يلتصق ناعماً وأملس
كلاء، أقداح مخروطية ملأى بعصير المشمش والتفاح
والكرز، يدلفن بالبراق المخرفة إلى بيوت الجيران
ويمكثن هناك إلى ما يسيق قليلاً موعد زودة الزروع أو
الاب او الاخ.

حياة البيوتات تلك كانت بمثابة الأدلة المؤكدة على تلك
الكيفيات الارستقاطية التي توجّب عليها كي لا تفقد
امتيازاتها الطبقية إن تعيش وفوق قانون: الاسر التي
تقترن معاً، مصلحتها تكمن في أن تتخلّص تباعاً معاً
معاً في وئام... وهدا كانت توزع قدميها بتوانز دقيق
محضوب جيداً، أشهى بتوانز السير على السرطاط
المستقيم الذي من شأنه الإخلاص فيه ان يقود إلى السقوط
في الجحيم: قدم في سطحه، والثانية في اصفهان، إذ
اختدت من السياسة او التجارة، والأخضل ان يكون
الاثنان معاً، منها مقدسة بالوراثة...

أخذتني بعيداً حيوانهم المدفونة في قلبها الاختساب
والحجارة، فسمعت غناه وسمعت ضنكها مرثانية،
وسمعت زغاريده صادحة، وسمعت دفوفاً ودرابيك
ورثنين خلايله وضربيها على الصنوخ، وسمعت أيضاً
عنولاً وصيحات عضب واثنين محظرين، وشمتت
روائح مأدب خرافية اقيمت في الباحات الواسعة لرتبة
رفيعة انعم بها الوالي على صاحب الدار لاته اهدى
(جنابية العالى) جارية فاتنة، او شفاف عن مؤمرة
حقرة او انتصر في معركة ثبات قديم، او تأييداً
لمصالح الأمير اطورية العثمانية، او الامير اطورية
الفارسية، سيكون ضحيتها كل الاحوال العراق
والغرقين... اذن حين تتبادل أي منهما (مقابلات السلطنة)
يوم كان العراق يتنقل بين حضنهما كالارجوجة في
حيد نام، تتبادل تبعان ذلك الاسر موبدة الامكنا،
ويتشاءم لأفل وشالية ذبح الناس في الشوارع والاحياء
وتغريب الاوضحة والمساجد، وقد أثيرت الباحات
بالمشاعل، مغروزة في قنوب خاصة في الجدران
والعيارات، او يحملها العبيد. أما إذا أقيمت الوائم بدفاع
طبيعة قاهرة كالبطار او الرياح العالية داخل الصالونات
المزدحمة بالطلائف والرياش الفاخر، فستنقاء
بالمشروع المعهولة من الفازلين التقى المخلوط بالمسك
والعنبر، وتكون المواقد ساجرة بخشب الجار المعطر،
القزم منظر حون في كسل على وساند الريش الهشة،
وتحتمهم بسط مزركشة باعمال دمنق وتبزير ومراكتش
واسطنبول، وكل ما ينقاله التجار المغامرون من مدن
الصناعات الترفية البعيدة، يستعلون من فرط النطافة

اسودت جدران المنازل واتخذ اصحاب محلات
القريبة من بحاتها اماكن مشاعة لتفاياتهم... توافت،
أخذتني الدهشة اي مأخذ، إذ خيل لي اتنى اسمع لغطاً
لملايين الاصوات التي تعاقب اصحابها على سكانها،
اضاقت لها او اخذت منها وقع اقسام النساء المترفات
وهي تخنق بالخفافها الحريرية على بلاطها. ورأيت ما
لا يمكن ان يراه غيري، مكذا از عم، رأيتهن وهن
يتعرطن او يسرحن شعرهن الطويل على مرايا مجوحة
موطرة بخشب الابنوس الاسود الماء المجلوب من
بلاد الهند البعيدة، يتقلبن في فناد صغير على الأسرة

الوثيرة في الغرف
الممعطرة بالبخور
وماء الورد، او على
السطح التي رش
الخدم منذ المساء
الماء على بلاطها
لتبرد بانتظار
الازواج المنقطعين
معظم يومهم للوظيفة
او التجاررة او
العشقة... وفي
معظم الاحيان الثالث
معاً، فيغدو من
الديبيه ان تراهن من
فتحات الشاشيل الى
رجال الظل الذين
يتخصصون بدورهم
عليهين من تناقض
البيوت المقابلة او
الملائقة، حيث
المسافة بين الشاشيل
المجاورة او المقابلة
لا تزيد على طول
جيالة امراً من ذلك
الزمان الشاعري.
ورأيت وانا وسط





طاق كسرى

وان امتد بي العمر مائة عام اخرى .
وفي قلق صريح اسمعه يقول :

- اذن، عجل يا عزيزي، اخشى ان تنفذ الخمرة من
الخمار، فتقطع علينا القيمة في هذه الليلة الزمهرير من
دون بقية ملايين الموس الذين تختنق بهم المدينة...!
- اووه... اذهب وسانظرلك.

البصمات على كل شيء، وفضاءات الليالي المتعاقبة
على المكان مشبعة بالاسوات و الهمسات الاسموعة ،
ونياح الاجساد المهاهنة المترشح من المسامات
وموسيقى الشفاه في لحظات الصفاء العاشرة او العاشرة
المسروقة معاً، وكهرباء اللمسات الرشيقه الونيد
المترسسة على الخصور والتحمور والازداف
الإمساك به، ثم، لمانا دانما وراء كل زهرة تتفتح، منجل
صدى يترسدها؟

عاير السبيل الذي نغض بديه من المستقبل، بكلمة اخرى
عاير الدنيا الزائد المحابي وحده القادر على سمامه
نداءات الجدران المكرورة وتشيع الشياطين المستباحة
واستغاثة المخابع المهجورة والنقر الملهوف على
الابواب المخلوعة... ولا من مجيب !

تمضي الناس، نعم كل الناس الى هشيم، وبقى المكان
محاطا بسحر خاص. شيء لا اسم له، من دون لون

متلما يستuron من الحسد لبعضهم، يرثسون الخمرة
المعتنقة من كؤوس اينة، ويتجشأون فترتعش اطراف
شوربهم الغليظة المرفوعة الى الاعلى ... على نحو
مضحك ان تكاد يسيطر عليهم من فرط النخوة تنجر، ومن
ورائهم يقف العبيد بأرادية فضفاضة اينقة خاصة لمثل
ذلك المناسبات لتلبية طلبات الاسياد التي غالبا ما يعلون
عنها من فرط الكسل والابههة والكبرباء باشارات
مقتضبة من اصحابهم المقلقة بالخواتم الشنيعة... وعلى
العبيد اليقظين، يقظة كلاب الصيد، ان يترجموها الى
الفعال من دون تلاؤ او ابطاء او خطأ .

بسوت مزدهرة، عامرة بالآثار، وعامرة بالثرى،
وعامرة باللهو العابث، لها نوافذ متعددة، ستائرها التي
هي في الغالب من الحرير او القديفة او الاستبرق ...

مسدلة خلفها ستائر متحركة من الخشب الرقيق
المخرم. اوابها من دون اقبال، إذ لا احد يجرؤ على
اخترق حرمتها حتى ولو بدافع من فضول .

(البدلي) يمسكتي من كتفتي، اسمع صوته المرشوش

بالولد يصلني من سطح ناطحة سحاب:

- الشاهي يصلني؟

- اطمئن لقد صليت طوال عشر سنوات متواصلة في
بداية شبابي، ويعمل ثلاث مرات في اليوم الواحد ...
واعتقد ان ذلك كافيا للتعبير عن ايامي المقفترض حتى

محمد، فقط الرائحة واللصمات تحر سانه في يقظة
وانتباها...

لنظروا الى السقوف العالية التي تطرد بريداً وكثيراً، الى

الشناشيل المعلقة للفرس، الى السلام المحتلة من

قبل اشباح العزلة والقراء، والى السراديب المرصوفة

بالحشائط، تركض في جنباتها الفتران والقناص

والضفادع، والى المصرات والطارمات الملوأة

بالفقدان والصمم المريض... هل رأسي مصاب بلوحة

الحديث مع الامكنا؟ أم أن الامكنا هي التي تستونقني؟

تتدبني عن بعد وتنخل معي في حوارات شفافة مشوقة

واحياناً ملغزة واخري شرسة مثيرة للشك وبريماً البكاء؟

ينتابني احساس عيق اذني اقض على قبة الاشياء،

على نبضها، خطوط بصماتها المنحوحة، اقرأ مثل عالم

الاثار حيوانها الجياشة في تراب الانقضاض، بمعنى اخر

اقرأ على طريقة المكتوفين، مآل حيواتي انا، المآل

المرعب الذي لا بد منه حتى لو انقطعت طوال ما تبقى

لي من ايمان: للعبادة.

هل السحر في ججمتي؟ أم أن للامكنا سلطتها

اللامرية مسؤولة سلب ارادتي على هذا التحرو

المحرر؟

لكن في كل الاحوال، ليس هناك احد قادر على فك

خيوط بكرة الحرير... أما لماذا كل هذا الغموض؟

فالحبيكم الى مذكرات المنغرين، هواه ومتخصصين.

احياناً آلمح على نحو خاطف الباشا او اليك او الاندي

يجلسون في الشرفات المضاءة بالشمعون، ارفع يدي

محبباً، يروني ويشيرون بصرهم عنى، وأشعر ان

على اisyجة الشرفات اطافل حريم مدثرات بالحرير

والقراء، مستحبات بالطلور والغلوية، متذکرات على

اذرعهن البضة، يسرحن النظر في صفحة دجلة، حيث

يستحم القمر الفضي وتسبح نجوم الزمرد في ضفائر

امواجه... اسمع ضحكها يصدح واصطفاق حشون

وحفقات كوكوس ثلثم بعضها في تحد ووحدة منهن

تهمس بياسي كاما، ارفع رأسي ماخوذ بصرامة

النداء، فلا ارى غير غراب اسحام، قطعة من ايل دنس

ينتفع بما يتباهي العول ثم يطير مبتعداً، وهو في طير انه

لا يكفي يلتقط بياتجاهي الى ان يختفي خلف بناية

مشعرة المدينة الطيبة.

لكن، ما ان افلح من سحب جسدـي من دائرة

المغناطيسيـ، حتى اسقط من جديد في ضجة اشباحهمـ،

خطوط وجهم الحادة وازياهم بالسراريـ او

الصلابـات او الملابـس الاورـبيةـ، وتفقد عطورـهم القويةـ

والباحث المردومة، ترن خلاطيون ياجر اسها الذهبية
الصغيرة على اقدامهن المرصعة بالوش، المخصبة
بالحناء، اقدام من قير مروشون بالعمل. والامر نفسه
بالنسبة لجموع الطوابعوين المرشة بــالمعلم او
برابيش او العقل المعمولة من شعر الماعز،
منظر حزن كالتوس على الطنانين، وفي افواههم حتى
وهم يتكلمون المباس المنحوتة من العاج لــجرلات
داخلة بــالأخيون، وكل ما يمكن ولا يمكن ان تتصحى
ذكرة نشطة من تخف واثاث ولواب ونداشين وحلبي
وليرات عثمانية من ذهب او توماتان فارسية.

ولعل أكثر ما يغير في الامر، إن هؤلاء القوم رجال ونساء، ظلوا حتى وهم مسجّون على وسادة الموت الظيرة، وقد فتح رب على البالبة النجمة، وهي تترنح على وشك الانفصال، يعيقدون بـ«صارار الطغاة» او المتعوّذين بهم اماماً هلكوا وبايديهم مرميّات رسانية تتعلّم بسمائهم مطلق عما أعد لهم الرب، ولخدمتهم سواسية من قلّة موكد غير قابل لأيٍ من أنواع النقاشات او الوساطات او الرشاد.

احقا، شناشيل القلوب المسلفه بالاغاني الرقيقة، المؤتمنة
بالعربي والمجون والهذان الاحمر انتهت الى ساخته
مكسور يعرض عليه الزمان المتجر معاطف خريفه
المهترئه؟

أغادر المكان على يقaya قلب يتعثر بخطام قلائمهم، إذ أمالتهم إلى تراب، وأتت اسراب الديان على لحومهم الدسمة التي كوموها حتى ناعت بها ظالمهم على صلبيتها من ماذب منهوبة... ولعل الانفاس من كل هذا ائهم صاروا بحكم قانون الزمن العادل المبارك متوي من دون قبور شاخصة أو اخفاد معروفيون، الامر الذي دفع بعض المؤرخين اعتبار ما يقال عن سلطوتهم المزعومة، فضلاً عن وجودهم طوال القرون الخمسة الأخيرة، مجرد شائعات، تقال للتلذذية وتزوجة الوlect، حيث مضفت من دون خوف أو تردد انباتي الزمان، فالفرجانية سلسلة طويلة من الاسر الحاكمة بأمر من الله، متمثلاً كانوا براز عصون، أو من الخاليفية أو من جراء المواتير والتساس والرشاوي، من كان منهم في ميع الصبا أو في متنلة الشيوخة مصطفتها ينسحبها طيور الحساسين اللاتي لا بد وخطرن في هذه الاذقة



شارع السראי القديم



مدينة الثورة: تراب المكان .. في المهب

أحمد سعداوي

أبعد هندسية صارمة... طول وعرض الشارع والزقاق ومساحة البيت والقطاع والساحات الخالية... خارطة واحدة تتكرر وتتجاوز مشكلة المدينة، أو خريطتها الواسعة.

هذه الصراحة في مخطط المدينة توحى بهيمنة المدينة كبنية قليلة على ساكنها أو على الجهد البشري المعتاد الذي ينبع في المكان. لكن، على هامش هذه الهيمنة كان من الممكن لصف من أشجار اليوكونيون المصونة على الصيف [شكل غير قانوني طبعاً] أن تتطاير بسمة لقطاع أو شارع ما.

ثم إن هذه الهيمنة الهندسية التي تذهب المكان الخاص في عمومية البنية الكبيرة لم تستمر طويلاً. جنابر البيسي والسعادين أمام البيوت، ثم الأسواق الشعورية المصونة من الجينوك.. كل أن تزول من الساحات الفارغة عند القاء الأزرقة داخل بعض القطاعات [يسbib استغلالها لمكان عام] تفرغت واستطاعت وتمددت على الرغم من هجمات رجال البلدية وتكتير بضائع الباعة بين حين وأخر.

عند ذلك بدأت حوراً وأبعد جديداً قسمت بنية المكان الهندسي الكبير إلى كتل داخلية [يسbib التكيف البشري طبعاً] ظهرت حدود ماقبل وما بعد سوق مرادي على سبيل المثال، أو سوق عربية وغيرها من الأسواق التي احتلت الجزر الوسطانية ثم الشارع العام بعناد وصلابة لم ينفع معها أي علاج.

خصوصية المدينة أن لا خصوصية [مدينة] لها. حتى اسمها.. هو اسم عام لا يحوي أبداً محلية أو شعبية أو ميثولوجية. [الثورة] أو [الشعلة] أو غيرها.. أسماء انت من رحم الحساسة السياسية ثم الشارع العام بعناد.

هذه الأسماء لا تصدأ أمام الغور القائم باسم مثل [بغداد] [بغداد].. [بغداد].. [بغداد].. [دلة رجرحة] وغير ثانية، وذكرة تختلط بالمخيلة وبالرائحة التاريخية، اسم مدينة أصبحت ذات اصل ميثولوجي.. بتدخل سردات عديدة في جذرها الغائر.

آم... ولكن ما الثورة؟ سؤال لم يجب عليه التسمية الثانية للمدينة [مدينة صدام] فيها هنا أيضاً نكمن قيم مفترضة ومحضة.. صدام.. صدام.. قائد الثورة.. بسطل التحرير القومي.. الخ.

حتى الاسم الحديث لهذه المدينة [الصدر] هو إعادة توجيه للمضمون السياسي في الاسم الأول.. [الصدر].. محمد صادق الصدر.. الثورة ضد النظام القائم.. الثورة هنا أيضاً.

ربما أعي الآن تماماً أن الجواود لم تكن سوى مركز وهي لمدينة الثورة، بالنسبة لي، أنا الطفل، مطلع ثمانينيات القرن الماضي. ولكن من هناك، بين أزقة قطاع وفي ساحاتها الترابية أو الطافحة بالياء الآسنة، ولدت خلية المكان الأولى، التي امتدت بشبكة اعتباطية لتراكم فيما بعد [المدينة خارج هذه الخلية هي شيء غير موجود بالنسبة لي]

ثم إن أحجزها وتفاصيل أمكنتها تظل مرتيبة ومنظورة إليها دانماً من ذلك المركز الوهمي الذي انطلق منه حضور المكان... من الجواود، قطاع 38 بالذات، الألفة والاستيعاش، ثنائية تخلق حاجز توتر لا خراق الأمكنة، الففة البيت ووحشة الرفق، ثم الففة الرزقان ووحشة الشارع، وهكذا... حتى تصل في لحظة ما إلى قناة الجيش التي تفصل المدينة بحاجز مائي عن بغداد.

وحشة القناة وألفة السدة الترابية التي تفصل المدينة عما وراءها، وتفصل أيضاً العاصمة عن خراب الفيضانات العاتية، التي تأتي من الشمال الشرقي. [هذه الفيضانات يذكر الحديث عنها، وعن المأسى التي سببها، لكنني حرمته من رؤية هولها المدمر] ما بين قناة الجيش والسدة الترابية يوجد شيء اسمه: مدينة الثورة.



عبد الكريم قاسم في حفل توزيع ميداليات الأرض مدينة الثورة

الجنوبي المهاجر (الغازي) يدخل قلب العاصمة،
ويدخل في الوقت نفسه في نظام العاصمه، وهو فيه
(هذا النظام) يمثّل الهاشم المقصى، انه عامل بناء أو
تقطيف أو بائع خضار أو حمال أو شرطي، وليس أكثر
من ذلك. انه وجود عابر سريع الزوال ضروري
لمركزية المركز .. لكنه ليس جهريا، أو جزءاً من
المركز.

الشاكيرية نفسها (أو الميزرة وغيرها...) كمستمرة
بناءً مؤقت للهاجرين ارتحلت إلى مكان آخر لكنها
ظللت كما هي، انفتلت إلى شمال شرق العاصمة ولم
يغتر فيها شيء، بسوت الصيف والطين والسعف
والعدهن والبواري) هدمت في الشاكيرية لبعد بناؤها
في الثغر.

ويعود أن اندثرت مواد البناء هذه أمام اكتساح موجات البناء الحديثة، وتحولت المدينة إلى الطابوق والحديد وبتريليت الشوارع والساحات وردم السوقين الطوليين التي كانت مجاري ظاهرية لتصرفيف المياه الثقيلة، لم يجد أن الشاكرية قد اخافت.

في منتصف الثمانينيات شقت المجاري الحديثة بخطون الشوارع ودخلت المنهج لالات البيوت وردمت (البلاط) لكن الشاكرية لم تختف، فنجمة الصرف الصحي لم تتم سوى سنوات معدودة ليردمها الاهمال وسوء الاستخدام

الكيان السياسي الظاهر ظل يضغط بقوّة على الكيان الاجتماعي للمدينة، لنبقى التسمية مرتبطة بهذا الكيان الظاهر وغير نابعة من تلاقيف المدينة نفسها.

الحدثة لم تكن قرية فجعت ثم تطورت، لم تكن جينيا، لقد ابنتها طبيعة في هذا المكان بقرار سياسي، ظاهر رحمة، وباطنه يوحى لشيء أعمق. من صرف الديكتيرو والشيوعي والمستهلك والطين اللاطلاجي من الجنوب في قلب العاصمة إلى مستوطنة على حافة العاصمة، وتکاد تكون خارجها.

شوّل شخص لها تحافظ على خالها على استمراره نحو النسخ الميداني فيها وتنعنه من الثالثي. وبينما أن العاصمة أو (قلب العاصمة!) متهمة بذلك بشكل كبير، فلم يتضمن الوافدين إليها، بل قصتهن في مستعمرات

ولكن برم ذلك، يبدأ المهاجرون في لحظة ما بالتحول إلى (غزة)، جوهر العاصمة هش وقابل التناكل، لذا بدا الإقصاء سلاحاً لمن لا سلاح له، فالغزو مستمر، ببطء، لكن ثابت.

الإقصاء يعمق حين يتبنى المقصى ثانية المركز
والهامش التي خلقها من يقوم ب فعل الإقصاء، وهو هنا
ات لا شخصية تمثل ذلك المركز الهش لقلب العاصمة]

ظل مريضاً بالهجرة غير المنجزة [١]

وكان خيار الهجرة الفصوى حاضراً لدى الجميع، حتى ان فخذأ عشائرنا كاملاً يقطن الثورة انتقل بالتدريج خلال التسعينيات الى مونتريال في كندا، وفق رواية شاعت آذاك. كل المدن والاحياء التي نشأت في بغداد بعد ثشوء (الثورة) ظلت الثورة تتزود بها بالازدينه، كحي الجهاد والشعب وحي اور والامين والعبدي والمثنى والصبيحية وغيرها.

كل الاسوق في بغداد وكل الجنادر والسيطان غر اها اهل السوق بتباهى، المقصى والمهمنش على السطح احتل العصاذه شيئاً فشيئاً، الصحف والوزارات وقاعات الفنون والمعارض والمعتمدات والادباء الرياضية... وفي التسعينيات استولى المطربون الشباب (ثر او بون) على الاذاعة والتلفزيون، اجيال شعرية وسر حية وتشكيلية كان محظواها الاكبر هم شعراً وفنانو الثورة. اووه.. ولا ننسى اللصوص والشطار والعيارين، فهم الاعتنى في هذه المدينة ايضاً. كذلك كان يجري بطاقة التجاوز، تجاوز المهاجرين لـ(الثورة) نفسها.

التجاوز باتجاه قلب بغداد، باتجاه (البغدادية) الرجراجة التي لم تثبت لهؤلاء المهاجرين.

ولكن، كم يبدو المركز الاقتصادي غالباً ومتقبلاً، انه لم يعد وذن وقت طول مركزاً مدينياً، فالسلطة القائمة في قلب هذا المركز هي خالية لمهاجرين آخرين. رفقون قادمون من شمالي غربى العاصمه، كانوا ثمرة المدينة واستولوا على روحها، فقدت هي وكأنها هي، لذا ليس من الغريب ان صفة التسامح المدينية لم تكن حاضرة، لأن قلب المدينة كان ريفياً بحثاً.

كانت العاصمه بمجلتها ريفاً متقبلاً ومازماً بليسان المدينة، في حين ان مدن العالم تم بمرحلة الخمة المدينية، وتحول الصواحي (الريفية) الى مستقبل مأمول سكانها.

امن التقليد التي كرستها السلطة الريفية او البدوية الحاكمة، هو تجاوز المدينة نفسها في البحث عن هوية ساكنها، فيتم التعریف على اسما العشيرة او العرق او الطائفة، وتبقى المدينة وقیهاخلفة شاحنة في العمق] الرحلة الاولى اي الى مدينة العمارة، لم تكن رحلة رومانتيكية للعوده الى الجذور وما شابهه، ولكن هذه الصورة كانت حاضرة في ذهني. بين طفت بشوارع هذه المدينة، لم تستطع التهرب من هاجس المقارنة، فها هي الثورة هنا. اليون لم يكن شاسعاً فالصلة ما بين العمارة والثورة ظلت دائمة طوال العقود الماضية،

وعدم الصيانة، ولتقدو مشكلة ونقمة.

[الوجود الطارى وغير المستقر للشاكرية هو ما استمر في الثورة وبثبات]

ساروي هذه الحكاية... البيت الذي عشت فيه لسنوات عديدة انتهى الى التلاشى القسري، فتسبب طفح مياه المجاري ثم آفة المياه الجوفية، ردت ارضيات الغرف لأكثر من مرة، وكان يرافق ذلك تقصير (رقباب) المراوح الساقية كيلا تتوش رؤوس الساكنين.

وفي نهاية الشانينيات هدمت سقوف الغرف ورفعت لمسافة متر، حتى يرتفع البيت بأجمعه الى مستوى الزقاق، ولكن هذه العملية كانت فاشلة ايساناً.

كانت الدافعية للمغامرة بهدم البيت كله وبنائه من جديد، ضعيفة ولعدة عوامل.. منها الاحساس بأن الاموال التي ستصرف في بناء بيت من الصفر من الاجدى صرفها على قطعة

ارض جديدة وبعيدة قدر الامكان عن

المشاك المزمنة لمدينة

الثورة، وليس اقل هذه المشاكل

المجاري والاضغط

الاسني.

في النهاية وفي لحظة بد مناسبة للجميع

بيع البيت،

وانفرطت العائلة الى عدة عوائل سكنت كلها في بيوت

خارج الثورة.

هاجم الهجرة ظل ساري المفعول في انفس المهاجرين

وابنائهم، حتى بعد ثلاثة اجيال داخل بغداد.

[على مصاطب باائع للشاري في مسطر العمالي بمنطقة

علوي جميلة منتصف التسعينيات يجتمع ثلاثة من

الاصدقاء في ليلة شتائية ويقررون الهجرة، وهذا ما قام

به كل منهم وبأسلوبه الخاص فيما بعد، ومن يقى منهم



اول سادات تملك في مدينة الثورة

طبيعة العلاقات الاجتماعية، وطبيعة الحركة والتعامل مع المكان بالضرورة. ثم ان الثورة ظلت المكان الذي يحوي اكبر نسبة من البطالة، وفي الوقت نفسه المكان الذي يحوي النسبة الاعلى للانشطة الاقتصادية الصغيرة او المتوسطة،خصوصا بعد اباحة البناء العمودي في منتصف الثمانينيات.. هناك محل واسواق وورش هي الاكثر احتشادا في بغداد.

واعطى عدم التجذر، وتعميم الهوية الذي يعيشه الشباب في الثورة، بالتسامه بين الجنوب وبغداد حرية وجرأة اكبر في السلوك حتى من البغدادي (الاصيل!)، يتضمن ذلك بصورة جلية في صرارات الملابس وحلاقة الرأس، واقتناء الموسيقى وسماعها، حتى ان البعض قد يبالغ في الوصف ان حلقي الثورة هم اول من يتشددن القصات الغربية، وهذا الامر ينبع على خطيبي هذه المدينة ايضا، وما زال الى الان عدد من الخاطبين المشهورين في المدينة قد يكونوا الاشهر في بغداد، بسبب خاصية الجرأة والمغامرة.

قد تكون هذه فوارق حاسمة بين الثورة والجنوب، ولكنها ليست خطأ فاصلاً شديداً للصلة، فالقيم العائلية على سبيل المثال ظلت تتغذى من الجنوب

حتى ان تأسيس الثورة نفسها وقطعها للنماذج مثـل عامل جذب لنازحين جدد من العمارة ومن مدن الجنوب الاخرى. في منتصف الثمانينيات .. عوائل بصرية كاملة انتقلت الى الثورة بسبب الحرب، وسرعان ما تقرر لها في الموطن الجديد، إلا أنها ظلت عائمة، فقلّون عدم تمكـن الدور والاراضي في بغداد لمن لا يملك احصاء 57 (والذي بدا انه مصمم لصد الجنوبيين عن بغداد) مثل حاجزاً قوياً أمام طلبـانية الاستقرار، وهذا ما شجع عدداً من هذه العوائل على العودة الى البصرة بعد نهاية حربـ الثمانينيات.

على العموم انتهت المقارنة السريعة لدى بين الثورة والجنوب، الى كون الامر لا يتعذر الزحزحة المكانية، ولكن الانصاف الطويل سيـمـوـد الى فروق عديدة، فالثورة مشهورة بأنها اكبر تجمع سكاني نسبة الى مساحة الارض التي تشتبهـا، حيث تشير الاحصائيات ان مسكن هذه المدينة يشكلون ثلث سكان بغداد، يتجاوزون على مساحة افقية من الارض لا تتجاوز 20 كيلومتر اربعاً، وهذا ما ينذر ان تتجدد في اماكن اخرى من العراق. وهذا التراجم ينعكس بشكل كبير على



في الطريق من الجنوب الى شرق بغداد

د

الثورة، لذا غدا من الطبيعي أن جزاً كبيراً من الشاطئ الاجتماعي يجري خارج البيت. المسافة بين الأفراد داخل البيت قصيرة، الأجزاء مشحونة على الدوام، الاختناق الدائم يولد التوتر، الشارع إذا والزقاق هو امتداد لا مفر منه للبيت نفسه، للنفس ومن ثم لاحتلال البيت. أحادي صور هذا التعدد أن البيوت التي تطل على شوارع فرعية عرضية استغلت الصيف الذي يصلّى بين حدود البيت وشارع العام لإنشاء حديقة. قطعة من (الليل) هي ما يحرز بها رهبة حقيقة، بشجرة أو بدون شجرة، هذا ليس، تماماً، المعنى: قطعة الليل، هذه دالمة.

هذه الصلة تجذرت في النهاية لكي تكون هي السمة الطاغية، فحالة التدهور العام غطت بظلالها على جميع مفاصل الحياة، التدهور هنا تجسد بالارتكاب القوي والهاسم إلى قيم الشيرة والقبيلة، على حساب ما كان يفترض أنها قيم مدنية جديدة، كان قد تشرب بها على وجه التحديد جيل المواليد السنغافورية (الذى استيقن داخل بغداد ولم يعرف غيرها)، هذا الجيل الذي شوّي بالتربيتين على نار حرب الشانزليزير ثم حرب الخروج من الكويت، ثم الحصار والعقوبات الاقتصادية.

ونتيجة الضغط السكاني، كان من الطبيعي أن تقفت المدينة نسبية من مكانها على يد الموسرين من أخوها

المددية

بالعمران (أي بعدن)، لنشئ إشاك بات (عدة خارج

الشيوخ غير البريء في هذه الحقيقة.. إنها كانت، بالإضافة إلى لقاءات الأدباء والشعراء وهواة القراءة وبتبادل الكتب، مكاناً لقاءات الشيوخ عيين والوجوهين واتجاع حزب الدعوة الإسلامية، وهي بذلك غدت غبة لقصد المختار بين المصلحة.

من التل إلى التراب الحر.. المساحات الكبيرة الخالية
أمام المسدة التربوية كانت أيضًا (وما زلت بتصورها ما)
مجالًا للنشاطات الرياضية، لكرة القدم بالذات،
والتنس، والاطلاط على المدينة بخصبها وغامتها
التي أداة فنية.

جزء كبير من هذه الساحات الخالية على مدار عقد التسعينيات وأسواق الخردة والاطارات المستعملة وما لا يحصى من الاشياء بما سمي حينها بـ(سوق مرادي الثاني) بسبب ان امتداد واستنطالة سوق مرادي الاصلي واكله للشوارع وجزء من الازمة والساحات الفارغة بما كان يهدد بالاتحاد مع سوق الحي (حي الاكاد) جعل البلدية تشمل قليلاً في رقتها الطويلة وتوجه لاقليم الاخصان المترابطة مرادي، ولكن هذه الاخصان نبتت في مكان اخر حاملة اسم الشجرة الام... مرادي.

الجد على الفقر باستغلال الفضاء (المقاد) لدى الريفيين (لبناء، وإنشاء غرفة جديدة كلاماً رغب احد القياديين انتهى الى صورة شديدة الغرابة.. غرف متلاصقة على مساحة 120 متراً مربعاً، والقضاء الوحيد المتفق داخل البيوت هو ممر طول وخلق بيادين باب المطبخ الكبير المزدحم

هذه الصورة تتكرر وبتنوعات مختلفة في اكثر بيوت

ابتداءً من هذه اللحظة ستتدوّى صفة الأرض الملغومة على من غيرها في وصف المدينة، ازدياد أعداد الغارقين من الخدمة العسكرية، والإرباك الذي تخلفه حملات ملاحقتهم من بيت إلى بيت ومن سطح إلى سطح، ازدياد حالات تسور السبوت ليلاً من قبل العرب والجربين ورجال الأمن إلقاء القبض على متلقيه (ربما كان متلقيها لا أكثر ولكن لا أحد يدقق)، سطوح المنازل التي كانت مكاناً حسرياً للمطربة (مربى الطيور) ولنشرارات المليسي، غدت أرضًا مباحة لغافرين والطاردين (كسر الاء)!

كل هذه الدراما تتوجت بـ زخات رصاص مديدة عام 1999 على صدورها

المتظاهرون
الخارجين من جامعة
المحسن عقب اغتيال
محمد صادق الصدر
على يد السلطة. هذه
لحظة حسمت نهائياً
التحول العميق
والطويل داخل
البلدة، وما حدث
عقب سقوط النظام،
هو ازالة غطاء لا
أكثر.



فی وسط سوق مریدی

صورة الرئيس الكبير المزروعة في قلب المدينة ما
كان لها ان تزول سريعاً بهمها مثلاً، ومحوها من
المكان، كان هناك من يريد ان يتذكر داملاحظة المحو،
لذا بدأ بتصوير (الصدرين) الشهدين على يد النظام
صاحب الصور: محمد ق.

لطف الشاب على مساعدة من المدينة، إنها المدينة، في الوقت الذي لم تهدى لها نفسها، انه يدخل الى مدينة جديدة موغلة في القسم، مدينة ما زالت رجراجة، لم تتبت مدينتها، او بغداديتها، مدينة المحو الالام للذاكرة (صفة المكان الصحراوي)، وربما لم تتدبر ببغدادية ما، انها في قلب الجنوب، وهو هوية له تماماً، وهي في قلب بغداد ايضاً تستبيحه كفاماً تشاء. يقر الشاب الكاتبات العديدة التي تملأ سطح الثور، فغير اعادة تعريف المكان، إعادة (استثلاك)، لمكان تذروه الريح داشاً، وهو مكان لها فقط.

مريدي (رقم 2) هذا، تطاول حتى اتصل في النهاية بسوق الداخل (وهي المنطقة المحاذية لما يعرف شعبياً بـ«منطقة الحدادة»، غالباً كاتمةً واحدة).

الغربي ان مريدي يمر لفاته العديدة انتقل من سوق شعبي الى سوق بسادوي كبير، بمعنى انه وفر في مرحلة نضجه النهائي الخدمة لجميع سكان بغداد، فالدوراوة (وهم صبية وشباب يدورون على البيوت لشراء الاشياء المستعملة) تحولوا الى جامعي فائض ومهمل البيوت الفارهة. كذلك دفع العزز بالعوائل الفقرة الى بيع اثاثها، لتنتصب كل هذه المستعملات على الرصيف في سوق مريدي، فخذل هذا السوق قبلة لمدن يبحث عن النادر او المستعمل الرخيص من ساسك بغداد بأجمعها.

[عام 1991 كان الشاب يقلب في كتب معروضة على فرشة من الجفناص وسط السوق، حين انفجر شيءٌ، علق البعض ساخراً أنه طباخ نفطي انفجر بيد أحد المصلحين، لكن

الانفجاربعد نسبتها كان شيئاً آخر، انه اطلاق نارى لقوات الحرس الخاص الذين طوقوا المدينة منذ ساعتين. لم يكن هناك وقت لتتأمل الحدث المتتسارع، الاجتاز او إعادة الهضم سوائى فيما بعد، حشود تركض باتجاه واحد، والطباخان التقى يستتر في انفجاراته. داس الشاب على ساحة حادرة معروفة على الأرض، بالآخر حطمها، الامر تكرر مع ضائعة أخرى، وتندفع الناس للابعد قدر الامكان عما حدث، والخروج من السوق الذي بدا في تلك اللحظات المتتسارعة ان لا جدو نهائته له.

فرغ الشوارع سريعاً، وانتهت الانقاضة الصغيرة
المجاورة مع الانقاضة الاكبر التي كانت تجري في
الجنوب هنا (ايضاً) بضرر اساليمه من
الحرس الخاص، وخيم نطاق من المرافق الامنية لم
تشهد المدينة مثلاً له، حتى ان الشباب كان مضطراً
لعرض هويته للعزيزين (ابناء حزب البعث) ورجال
الامن حين ينتقل بين قطاع وآخر



بِعْدَهُ

ابتكار البساطين

محمد ربيع

بعقوبة... عبق التاريخ

في الآرامية "باعقوبا" هي بيت الحارس أو بيت العقوبة، ويبدو أن لجادلنا قبل آلاف السنين اختاروا هذه البقعة النصرة بخضريتها ومواهها لكون مكاناً للسجن يقضي فيه المحكومون مدة غوبتهم. ومنذ القرن السادس عشر كانت تقطة دبالي تسمى بمنطقة "طريق خراسان". وفي سنة 1816 وصف الرحالة الانكليزي جيمس بيكتهام مدينة بعقوبة بعد أن زارها قائلاً: بعقوبة قرية كبيرة مبعثرة تتكون من مساكن بنيت من الطين وساتن التخليل وحاتق وما شاكلها، مختلفة في بنائها مع سوق يائس ومسجدين صغيرين، ولا يتجاوز عدد السكان الألفي نسمة، كلهم من العرب، وبحكم المكان يوسف آغا التابع إلى أسد بشاش ببغداد.

وحيث كان العراق ثلاثة ولايات هي (بغداد والموصل والبصرة) كانت بعقوبة قصبة تابعاً لمنطقة بغداد إلى جانب أقضية عنة والمادي وسامراء وآخاذن وندلي والكاظمين والكرت والعزيرية، وذكر الرحالة كارلسن نيسبور الذي زار العراق بعد العام 1680 أنه زار خريسان من جملة مدن ولاية بغداد، وبقصد قضاء خراسان، حيث سمعت المنطقة المعروفة الآن بديالى باسم خراسان، وكذلك أشار لذلك المتنشط البغدادي في العام 1820 الذي دخل المدينة مع المستر كلاديون جيمس ريج وكتب في وصف المدينة: من بغداد إلى بعقوبة ثمانية فراسخ، وبعقوبة من قرى خريسان وهي من الجانب الآخر لنهر دبالي، وعلى شاطئي دبالي وخريسان يحصون قرية معمرة، وهي القرى أنواع الفاكهة والكرم، وفي وسط الطريق بين بغداد وبعقوبة بعد أربعة فراسخ خان الصن المعروف عند العرب بخان بنى سعد، وبالقرب من سط دبالي بنى خان سمي خان السيد، وسكنه من أهل بعقوبة ويعرفون إليه بسفينة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر يقول كي لسترانج أن بعقوبة أول مدن طريق خراسان، وهي ذات بساتين ونخيل، وأن الطريق إلى المشرق صار يمر بها بعد خراب مدينة التهرون.

يوجل الباحث المتخصص بتاريخ دبالي المحامي والأديب هـ الدليمي في تصانيفه القرون ليتحرى عن طرق المواصلات أولاً، والتي كانت تصل بعقوبة بغفاره في غابر الزمان ف يقول: في العصر العباسي كان الطريق من بغداد إلى مناطق دبالي يمر بمدينة

بعقوبة ابتكار البساتين، وبهجة الليل والندى، وفجر الفاختات. هبة الجغرافية للتاريخ، وتأثيث التاريخ لبراءة الجغرافية .. لم تنتصل بعد من روح القرية كما لو أنها ما تزال وفية لوصف ياقوت الحموي لها يوم عدّها قرية كبيرة تشتهر بالليمون. وضاحكة بصخب المدينة الحديثة كأنها تلهث وراء بهرجة العصر، تطولها ولا تطولها.. لم تنسفها الحكومات المتعاقبة، ولا كتبة التاريخ، غير أن الشعراء جعلوها في حدقات القصائد، وكان نهراً دبالي وخريسان نسخة خلودها على الرغم من عاديات البشر والزمان.

النهر وان، وهي جنوبى محطة كامل بوسط القديمة، وفى شمال الامام المعروف بأبى العروج بعد مروره

بأراضي سامي الأورقى ودير بير ما ثم الدسكرة (اسكي ببغداد) ثم شهريان وجلواء وخاقن، وكان هذا الطريق القديم على الأرجح لا يمر ببهرز وبعقوبة، وتبدل الأمر فى آخر العهد العثمانى.

قد يسأل فى اللغة الرومانية، وبحسب الباحث طه الدليمي: كان نهر دىالى يسمى (جنيس) وهو النهر الذى وصل إليه كورش فى طريقه إلى بابل، وقيل أن الكتاب الأكاديمين كانوا يرسمون دىالى على صورة (بلاس)، وعند باقوت الحموي (ت 626 مـ) هو نهر بعقوبة الأعظم، وهو النهر المستى (نامر) أيضاً، وعلى هذا النهر كانت ترکب مدينة بعقوبة من شهريان، ويمر بين تلال منخفضة، تلال حمراء، فتحت قها إلى خاقن، كما يتحدث، وبحسب الدليمي أيضاً، باحث محدث عن طريق آخر الذى يسير جنوباً بمadianة نهر دىالى من جهة الشرقية مارا ببهرز حتى يصل إلى مصب دىالى في دجلة ومن ثم المدائن، وكان هذا الطريق يمر بصحراء لا يأمن سالكها من قطاع الطريق حتى بنى الوزير عمر باشا خانة مبكأ فى العام 1100 هو خان بنى سعد، وما تزال آثار باقية حتى يومنا هذا.

يقول روبيت آنمز: إن بعقوبة لم تذكر كثيراً في الكتاب القديمة على الرغم من قدمها والسبب كما يرى هو عدم مرور الطريق القديمة بها، وحين تحول طريق خراسان نحو الشمال وأصبح يمر بها بدلاً من مروره بالنهر وان تردد ذكرها وكثير.

ويرى الباحث الدليمي: إن وصف باقوت الحموي ظل مطبقاً عليها حتى بدايات القرن التاسع عشر، ومذ ذلك وصفت ومن خلال رؤية أحد المسافرين بأنها بلدة كبيرة تعرف باسمها منهاجاً وكثرة من اعيتها وجودة تمورها تنتبه عدة قرى ويحكمها ضابط يعينه البشا كل سنتين أو ثلاثة. وشاده عيان آخر وصفها في العام 1820 بأنها قرية واسعة منتشرة تتكون من بيوت مبنية بالطين وبساتين ومزارع مختلفة وفيها سوق قبر وجماعان صغيران ولا يزيد عدد سكانها على 2000 نسمة وكلهم من العرب، وهي بأمرة يوسف آغا، وهو خاضع لأبعد ياشا وإلى بغداد، وذك شاده آخر من بها في العام 1824 بأن الخراب الشامل أصابها بسبب احتلالها من قبل جيش محمد على ميرزا حاكم كرمنشاه، ثم وصفت بعد ذلك بعشرين سنة بأنها تزيد كثيراً على كثمة خراث، وبحسب رحلة فرنسي في العام 1845 فإن الحياة قد عادت إلى سوقها وجماعها

مرقد الإمام أبوذر





نهر خرسان

كهف الزمان، ويمضي مع خطوات الرحالة والهائمين
والعشاق والأثياء والمحاربين والغزاة نحو نقطة
سديمية في الف رجاج، مدينة تفت اليوم على كف حلم
خجول، يختال سحرها في عيون العذاب، وينتاج شفتها
في حناه أصابع عروس مسكنة بالرجل اللذى.. قد
يعكر صحوها رماد البارود وراحة الموت، لكنها
تنغضن ما علق ببروتها من خوف بعد هنئية فنود
لتشاكس نقاء الماس، إذ يضطرب في فتوة أنهارها... .

ليل بعقوبة

كيف لمدينة أن تستعيد عبق لياليها.. صفاء وسنها،
وحلو أحلامها، عندما اختفت دروبها بأنقاض كاتبات
الخراب والكوابيس؟
كيف لها أن تمسح الهيلاب عن ندى عشبها، وتزد مرأة
أخرى، لعشاقها رنين نهرها القديم، ولسكانها آمان
النوم في عراء الفجر، ولنسائها قلق انتظار أزواجيهم

جانبها الغربي، وما تحت المدينة منه يسمى (ديالى)،
ويصب في دجلة، ومصبه هناك يسمى (قم ديالى).
أما خرسان في المدونات العربية القديمة هو نهر
جلولا، ويوم كانت نقطة ديالى في العهد العثماني
تسمى (طريق خراسان) وبعد التخفيف (قضاء
خراسان) سمي النهر بـ(خرسان) حيث الأصل فيه
(خرسان) وما زال أهالي بعقوبة يسمونه هكذا على
الإملاء وقلب ألف (خرسان) ياء على وفق ما يقول
الباحث طه الدليمي، ويضيف: وخرسان في العهد
السابق يسمى رسمايا بـ(نهر سارية) نسبة إلى القائد
الإسلامي المشهور سارية بن زنيم بن عبد الله بن كنانة
الدولي بعده أمره الخليفة عمر بن الخطاب على جيش
وسيره إلى فارس سنة 23هـ وله قال: يا سارية الجبل.
ولو سمي النهر باسمه القديم جلولاً لكن ذلك أكثر
صواباً من الناحية التاريخية، لعدم وجود العلاقة
التاريخية بين هذا النهر والقائد الإسلامي الجليل.
بعقوبة خط سرد متعرج، يبدأ من نقطة مستترة في



قطرة جامع السوق

لن تغير مدينة على حقائقها مالم تجس خلل فيها.. مالم تقرب فتنة عتمتها، وأنفس أضوائها، وما لم تتحسن غموض لوعتها وهي تتتسج أحالاتها في خيالها السري.. وما لم تتعرف على أنهاها، كيف هم في بريه الليل، وكيف يغطون...

لكل هنا ليله، ولليل الفلق غير ليل العشق، ولليل المسفر غير ليل النمر، ولليل العائلة غير ليل الغربة، غالباً ما تكون الذكرة مترعة بـأطيااف الليلي أكثر مما تكون متشلة بتفاصيل النهارات.. بيد أن ليالينا لم تعد كما كانت، ولا أحد بمستطاعه أن يعودها سيرتها الأولى، سوانا.

ذاكرة رجل.. ذكرة مكانت وزمان

أدخل ذاكراة رجل واحد، أحاروا أن تنصفي في جغرافية ما قبل الحرب العالمية الثانية للمدينة، فما جنتي الرجل بخصوصية ما يخزنه هناك من خارطة وأضحة للأماكن،

الذين لا يصلون بيولهم إلا مع استيقاظ العصافير؟ كثيرة هي مفردات قاموس الليل، التي كانت، في مدينة مثل بعقوبة (حيفي البستانين البليلى، ووشوشة الماء تحت الكباري الحجرية.. طلاب المدارس يذكرون دروسهم تحت أعدمة النور، ولغط المقاهي السهرة.. رائحة الشواء والشاي المهلل، والوقع الزيت لخطوات السائرين على كتفى نهر خرسان يعتابون من غابوا، ويبوحون بأسرارهم قبل أن يقرقوها وقد تخفوا من عباء يومهم...)، لكنها مفردات أغصبت.. سرقها بعضهم فحلت بدل منها مفردات أخرى (القصوص.. المكبلون.. الدوريات الأمريكية.. منع التحول.. صفاراة سيارات الشرطة.. إطلاقات نار وانفجارات.. كتبة الشعارات الخائفة على الجدران، والظلام (الضريح).

منذ سنين، والحق يقال، كان الكابوس الهائم على وجهه يقضى من ليل المدينة أشياهه الحميمة.. يطير بعنويتها ورونقها، ومذاها وشذاها.

بود محمد حسين عيسى وحسن دعم وحبيب أبو شلال. ومن الباقلين يذكر "حسون غائب ورشيد فليحة وصالح شقيق" وعود حميدة وعبد تراوい وفضل دروش وجاد الجر، ومن البارزرين يذكر "جميل شعبي" وعبدان أبو عارف وغنى البازار واللحاج كريم وأبراهيم وشيوخ اليهودي وسلم لبلو اليهودي"، وينظر من اليهود أيضًا "موشى" بائع الأدوية الشعبية وزنار دائم الملائكة".

ويذكر من الخياطين "أبو جابر النجفي وحميد الأعرج وتوفيق الخياط وأسطة أحمد المصلاوي وأبو أحمد".

وقبـول: كان في المدينة أكثر من مخزن للحـبوب
والمـنتجات الزـارعـية "علـوة" منها عـلـوة عـبـود درـوش،
وعلـوة خـليل كـزـة، وعلـوة باقر الطـوـجي، وعلـوة جـاسـم
حسـكـهـ، وعلـوة مـصـطـفـي عـبـيدـ، وعلـوة مـصـطـفـي بـديـعـةـ،
وعلـوة عـباس الجـيلـ، وعلـوة حـجـي جـادـهـ.....

اسـماءـ وـاسـماءـ تـنـاثـرـ منـ بـينـ شـفـقـتـ، يـشيرـ إـلـيـهاـ بـحـسـنـينـ

لـأـيـنـ، أـيـنـ؟

في ذلك الزمان، يقول حميد: كانوا في مقهى عباس بيته
يلعبون الورق خاتمة، وكان هناك أحاجن يأتون بالقرود
والدببة ويراقصونها والناس تتفجر، وكانوا يلعبون
المصارعة.. نازل عباس الديك الألماني كرين وتغلب
عليه، هنا، فـ «تفقد»ه..

إلى جانب مهني عباس تبكي كان موقع بعقربيه العسكري، يتدرب فيه الجنود ويفدون إلى باستعراضات، وكان الانضباطية يختارون الشباب للالتحاق للتجنيد في الأسواق ومحطات القطار بالنظر. وكان هناك خان التمرين في 1941 يعطون كل عائلة كيلو سكر أحمر، وخطوة وشغر مخلوقين بالتلار، وكانت ماكنة الطحن أيام الموقع العسكري وصلاحها كانت باسم محمد الدري، وهي سтан على حرسون العجمي وكانت ماكنة طحن آخر يملكونها اليهودي جوري. وفي عام 1949 بني ناجي وهودة، وهما يهوديان أيضاً أول أرجال لسلسليات في المدينة.

هذا يرحل حميد مطر في إيراد تفصيلى واسعة عن الأمانة والأشخاص بشغف وأسى. لانستطيع تتبعها كلها في هذه العجلة، رغم أنها تتضمن مدى التغيرات التي حصلت خلال عقود قليلة، لا في جغرافية الأمانة، وإنما في خارطة المؤسسات، والتالي، سبب وإنما في خارطة المؤسسات، والتالي، العلاقات الأخلاقية كذلك.

ولساماء وأحداث، وحين أعلمك بيته في كتابة هذا الموضوع تتفجر ليaries فريو بتفقد بكلام فرح كما لو أنه أطمأن أخيراً، لأن ذكرياته الحميمية سميري الاحتفاظ بها في موضع من، أقصد؛ في أفق الكتابة...
محمد حسن كاظم مطر، رجل تجاوز السبعين، يحمل في إلهيه تاريخ مكان ونكته المعنقة عصر عقود من المسارات والأوجاع. وحدث عن خانات ومقامه ويسائين دورور حكمية ومضائق واسطبلات وحمامات للرجال حمامات النساء، وببيوت من طين وأخرى من

عن بزازين وعطارين وحلقين وبقالين وحوذين..
ويتنزع أماكن من مواضعها الحالية ليأتي بأماكن أخرى
كانت واندرت كأنه يحقق في مدار حلم أو جنة خيال:
- كان هنا أو تول فيه مرقص وبار ..

في الثلاثينيات والأربعينيات.
تُنظر إلى حيث يشير، تجد دكاكين ومطعماً عصرياً:
في وسط بعمقها، شارع النصر الحالي كان بيت
بيستان حسون الدهان... وفي موضع محل غازي
السعدي على خرسان كان استقبل خيل طوله حاتم
دهمان... كان الحذويون يتبعون عبادت اللبلقه.

- نعم، هوبي علاج، مهدي أوقاتي، جود حاجم، سماويل حاجم، حميد أبو النص.
- اتذكر أيًّا منهم؟

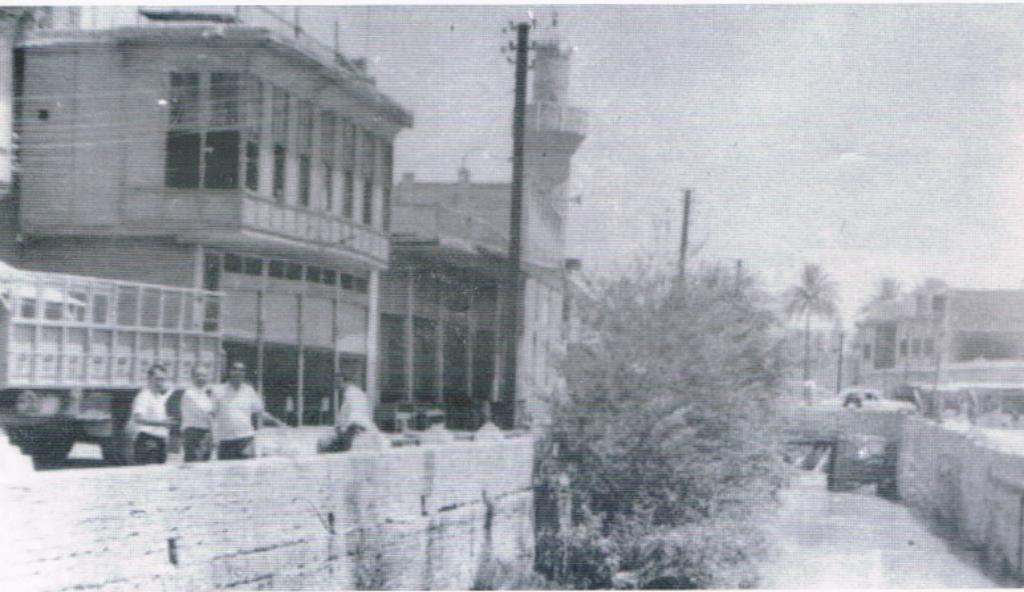
قول حميد مطر : كانت بعقوبة ثلث حول خريسان، وكان المصرف الحالي كان بيت الملا لالة عارف ، أما نصيروف كانت قهوة البغدادي ، و حول القنطرة قهوة حاج عبود سين مغلاري و قهوة الحاج أحمد لفقة ، في مكان العيادة الشعيبة الحالية كان ثمة زقاق فيه بيت و بوبيا اليهودي ، أما بناء السراي القديم فكانت تحتوي اثارة التراثية ، وخلفها كانت المحكمة ، وإلى جانبها كان مسجد ، وإلى مبعدة منها دائرة البريد حيث مقهى شكر محمود الورد و مقهى أحمد الورد ، و فوق كل مقهى من مقاهي الآخرين كان أوتييل ، وإلى جانب مقهى أحد ردد محل لبيع الخمور يملكه حسقيل اليهودي ..

ان مشروع الماء في موقع حي السواحرة شمال
المدينة، إلى جانبه مولدات الكهرباء، ومعمل (كورة)
صناعة الأدوية الفخارية "البستوكلات والحبوب
اللتكتات..."

ويتزرون على ضفاف النهر "خرسان وديالي" .. إن مسارات ما يسلكون هي هي منذ عقود، لا يكاد يذكر هناك شيء قد تبدل بشكل جوهري وواحاسم.. شارع بغداد القديم، جسر الجمهورية، الجسر الحديدي الذي كان مخصصاً للقطارات التي اختفت ذات يوم من أيام حربينا الكثيرة، تمثال الفلاحية، شارع المحافظة، ملعب الإدراة المحلية، متاحف ديالي، المسبح الذي قصفته الطائرات الأميركية بعد أن أطلقه مسلحون قبل سنتين، الشارع المعاذى لخرسان من الجهتين، ساحة الكوش، شارع الأطباء، بناية المكتبة العامة، والسوق ينفر عناته وضريحه وفضاءه، قنطرة خليل باشا، ساحة مدرسة الوئام، جسر التحرير، مقبرة الشرييف، متذكرة نادي الفروسية، تقاطع الموت، تأمل الأسم !! هذه وشياء آخر تعطي صورة لمدينة تمام على فلق، وتطل بمليون ذلت صباح من دون أن تتطرق سماع لعلة رصاص من ودوى قنابل الموت في الطرقات.

واليوم

كل من تتحدث معه، يحيلك إلى أشياء ضائعة.. إلى مسرح عامر كان قيسلاً مقصود، والآن لم يعد له وجود، وإلى دور سينما لم يلم بها الناس ولم يشيد لها لهم أحد.. وإلى مقاهٍ فقدت ذكريتها، أو أنها أغلقت أبوابها أو أزيلت، ولا سيما تلك التي كانت على ضفاف نهر خرسان، وبلا سبب معقول.. أما المؤسسات الحكومية المعنية في ظل النظام السابق فلم تبادر قط إلى إنشاء مقاهٍ أو أية مرافق سياحية من خلال استغلال الأماكن الجميلة الملائمة والتي هي، بلاشك، كثيرة في مدينة مثل بعقوبة. بعقوبة اليوم تنفس الخوف مع الغبار ودخان العبوات الناسفة، غير أنها تخلي عنها هذا الرداء أحياناً، بقوة اليأس والأمل في أن مما لتنمارس ما تقتضي منها الحياة بحرارتها، وإيداعها.. يخرج الناس بالآلاف إلى مدارسهم ودوائرهم وإلى الأسواق والمقاهي، فـ





قلعة سكر مدينة الحدائق الثلاث

صفاء ذياب

بيتنا العتيق

هذا الحنين غالباً ما يجرفني لبيتنا العتيق الذي كانت أرضيته من الكاشي الفرشوي، والذي يضم بين جناحيه ست غرف وحوشاً كبيراً أتوقع أن مساحتها كانت عشرة أمتار طولاً وخمسة عرضاً... والذي كان يضم خمس عوائل كبيرة، إذ كان والدي كبيراً وهو الذي يتحمل جميع نفقات هذا البيت أو البيوت الخمسة...

يقع بيتنا في شارع عريض كان يسمى بـشارع الجمعية، إذ توجد في بداية الشارع الجمعية الاستهلاكية التي أغلقت في منتصف ثمانينيات القرن الماضي بعد أن بدأت البياضات تتحمّل في السوق بسبب الحرب العراقية الإيرانية، ومن ثم تم تحويلها إلى مقرى سر عن ما أغلقت لعدم وجود شباب يجلسون فيها بعد أن ساقتهم الحرب إلى الموت، فضلاً عن الشيوخ الذين أصابتهم ذكرى الحرب، فلم يعوا سبب الحياة إلا بعد أن لذتهم الرعشة بعوده أبنائهم...

على امتداد الشارع، كان الصبية لا يتركون المارة في حالمهم «طعماً» يكتنون لهم، إذ إن ذاكرتي بهذا الشارع تتمدّد منذ الثالثة من عمرِي وحتى الثانية- والنسوة لا يبرهنن أشكالهن وهن يفترشن بسطواً أمام بيوتون ويدان بلوك المارة مع الصبية، ويتحمّلن على أثنتها وأمل ذلك... كل ذلك ولم تكن هناك حرمٌ تنهك، حيث الجميع لا يتركون أيّاً من نسوة الشارع حين يتعرّضن لأيّ كلام من رجل غريب، ولا أقصد بذلك التشتّارات، بل حمية أهل البيت الذي بدأ ينفرط بعدهما انتقالنا من هذا الشارع في العام 1983 يوم استأجرنا بيته جديداً في شارع آخر يسمى (شارع المستشفى).

كان شارع الجمعية يتعرّض إلى فرع عن رئيسين وثلاثة فروع صغيرة تؤدي إلى بـ——جوبوت صغيرة لا يمكن تقسيمها، ذلك أنّ جميع عوائل هذا الشارع بمثابة عائلة واحدة، والفرع عن الرئيس يودي إلى السوق الكبير من بدايته ونهايته... .

الحريق الكبير

يأخذ السوق القديم الجانب الأيسر من المدينة عرضاً بالكامل، إذ يمتد من الحديقة التي تتمدّر مركز المدينة وينتهي بنهر الغراف، وينكئ على جانبه الأيمن المسجد الكبير المتخصص بصلاة الجمعة المتوقفة لأكثر من عشرين عاماً.

ربما لم أكن أعلم، منذ أن تأبّلت منفأي الذي لم أزل أعيشه منذ أكثر من أربعة عشر عاماً، أنني سأفي أحزن إلى أذلي... هذا الأذل الذي لم تتعاف ساعة واحدة إلا وانشدّدت إليه كلما لطمّتني المدينة برفاهتها المبتلة، أقصد كلما قبّوني بقصد أو من دونه بـ(الشروكي)، أنا القادر من مدينة لا يتجاوز عدد ساكّانها السبعين ألفاً بعد الزيادة الهائلة في الانجاب الذي سببته حبوب منع الحمل التالفة أيام الحصار القاسي... مع أنني لم أعرف سبب تسمية مدینتي (قلعة سكر) بهذا الاسم، وهي المدينة القاطنة شمال مدينة الناصرية بـ(100) كم، إلا منذ مدة قصيرة وحتى هذه اللحظة لم يوثق سبب التسمية هذه، قد يكون ذلك لأن سبب سياسية أو اقتصادية... أو عشائرية، فهي سميت بـجحبـ ما قيل لي. احتفـأ بالشيخ سكر الذي بنـ (جوشـ من الطين) أطلق عليه يومـ (القلعة).

(دوبيات) غالباً ما يرميها التيار بعيداً، فينكسر ظهر المسر، وتنوقف عندها وظيفته الوحيدة (العبور)، عندها يهلهل أصحاب الزوارق الصغيرة، إذ بينما عملهم بشفف وجهد كثيرين، وتتسدأ عندها أيضاً طوابير الريفيين للعبور إلى المدينة ومن ثم عودتهم بعد انتهاء ما جاؤوا يطلبونه... في انتهاء السيسينيات بدأ السباق الحقيقي بين ناحية الفجر، وهي مدينة صغيرة تقع شمال مدينة قلعة سكر، وبين سكان قلعة سكر بعدما نصب عزت الدوري لهم جسراً حديثاً لا يستطيع الزمن مهما مر أن يكسر ظهره، وذلك بعد دمار زارهم

تترافق الحال مع بعضها كصف من المساجين بملابسهم الرثة، وأقول الرثة إذ لم يجد بناء أي محل منذ تأسيس السوق قبل قرن من الزمان، محل مقابل محل من دون أية فسحة للتقوية، مع أن السوق لا يرى السماء الزرقاء إلا في بدايته أو نهايته، حيث سقط بالألواح من الألمنيوم على طوله خشية المطر الذي قد يُفرق الحال. في العام 1979 أو 1980، لا أذكر تحديداً يوم كان عمري أربع سنوات، اندلع حريق كبير في السوق، تماماً عند الساعة الثانية عشرة ليلًا صرخ شاب يدعى علي كان بيته يقع في ظهر السوق تماماً، بإندلاع الحريق، عندها هب سكان شارعنا وشارع الكرد لإطفائه، إلا أن الأمرتجاوز السيطرة تماماً، فسارع الناس إلى جلب الماء حتى نفذ ما لديهم، فتراكموا بغرفون من ماء الساقية الآسن حتى يستطليوا السيطرة على اللهب الذي أخذ بالتهاشم كل ما يوجد في طريقه... احترق السوق وأختفت جميع البضائع التي تكفي المدينة لأشهر، وبقي الناس يهددون الحريق حتى اندلع الفجر فانكشفت عندها القاعدة...

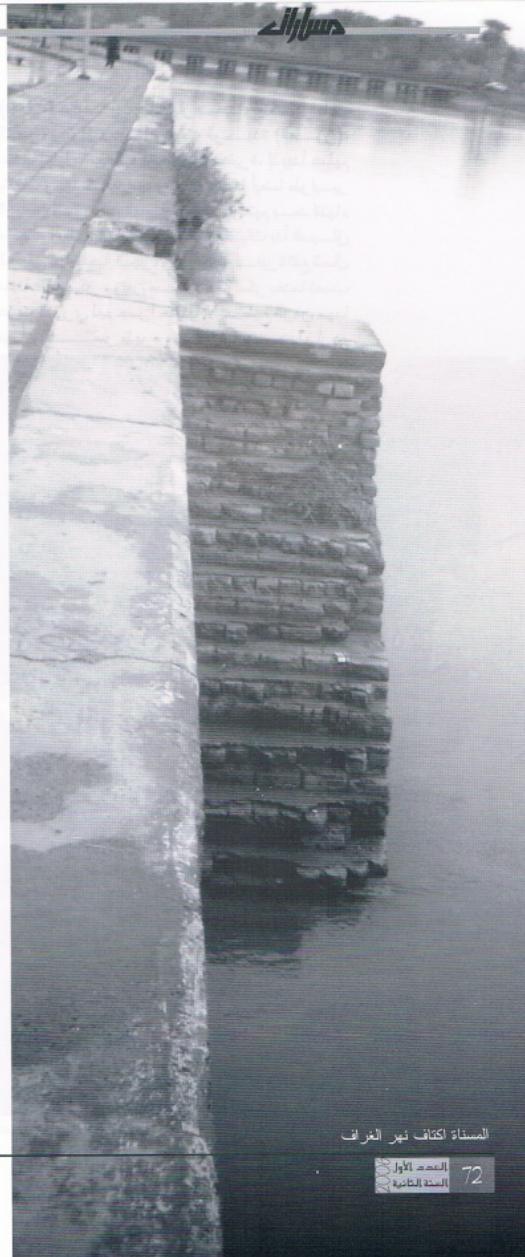
بعد قرن من الزمان جدد السوق... فلا يوجد محل إلا ويجب إعادة بناته، بل هو بعض التجار طبيعية عملهم لأنهم كانوا بحاجة لهذا الحريق حتى يستطيعوا التجربة على تغيير تجاراتهم إلى عمل أكثر حداثة.

الغراف... نهرحزن الأبدى

كان السوق الكبير يتوسط المدينة -قريباً- وتخرج من فمه حديقة ذاتية يقابلها على الجانب المقابل مباشرة سوق صغير متخصص ببيع الخضرروات، ويتفق منه سوق صغير جداً لباعة اللحوم والـ(بساجات)، وفي نهاية هذا السوق الصغير سوق أصغر -أو من الصعب تسميه بالسوق- بل هو عبارة عن تجمع عدة عربات لبيع السمك الحسي الذي كان الصيادون يصطادونه من نهر الغراف الذي يشق قلعة سكر إلى صفوف مخلفين بكل شيء، إذ على الجانب الأكبر المدينة بكل ترفة (السباق) وحضارتها، في حين نجد على الجانب الآخر الريف بكل ما فيه من بساتين وحظائر للماشية وأناس نادر أما ندر أحد شبابهم يلبس بنطلونا... بل الشاديش البيض والشمامغ وبعض العقل التي تسد الرأس كأنها سحابة سوداء... ويربط بين جزئي المدينة جسر صغير يتتألف من قطع حديدية مربوطة ببعضها وتتكئ على

مقهى سلمان من أقدم مقاهي المدينة





ذلت يوم فخر جواله بهتافات لا تقطع، مرددين مطلبهم الوحيد (طلب جماهر الفجر... دويات الطبيعة تجر...) فقد كان ما يميز جسر قلعة سكر عن جسر الفجر الدويات التي تقواه تيار الماء فلا يستطيع فك براغي (الطبيعة)... منذ ذلك اليوم وشباب الفجر يتباهاون على شباب قلعة بجسرهم الذي تمر من عليه الشاحنات ولا يحيي ظهره للتبار... .

الريفيون بدأوا بالتمر من جسر الفجر، الذي يستطيعون العبور عليه لكن بعد أن يمشوا (10) كم، حيث التحضر الذي يأتي بعد هذا الجسر، والذي لا يستطيعون الاستفادة عنه عندما يليسوون قميصاً وبنطلون، إلا أنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون ترك (الكتاب) الذي يمشون من أجله مسافات طويلة، ومن ثم الجلوس على المقاهي المنتشرة على فم السوق، التي غالباً ما يحتشون الشاي فيها ثم يتركوها، أو يشربونه ووقفاً، لعدم استطاف الناس (المتحضررين) لهم... .

الحانق سر المدينة

تمتد المقاهي من فم السوق، وحول الحديقة الدائرية جنوباً حتى تصل إلى حديقة دائرة أكبر من الحديقة الأولى، ترتفع على جانبها دائرة مهمن، الدائرة الأولى قسم شرطة قلعة سكر، الذي تقابله دائرة الأمن العامة في المدينة، وفي الجانب الآخر الإعدالية الوحيدة للبنادق، في حينها، وبالقرب من قسم الشرطة تقع محكمة الأحوال الشخصية التي تقتصر على جانبها كاتيو العرائض، وعلى بعد مسافة قصيرة يبدأ الطايلور الطويل من المساقين إلى الخدمة العسكرية بانتظار أن تفتح دائرة التجنيد بابها عند الساعة الثامنة صباحاً، ليخرج ضابط التجنيد بشارة الكفين والطوبان وبالبطن الممتدة على مسافة نصف متر ليقول: من الشباك الخلفي اتركوا دفاتركم، وانتظروا حتى الساعة الثانية عشرة... إلا أن الميسوريين لا يذهبون إلى الشباك الخلفي، بل ينطلقون إلى الباب الجانبي، إذ ينتظرون هناك نائب ضابط التجنيد ليجمع دفاترهم ويؤخر تسويقهم شهراً أو شهرين مقابل مبلغ (كثير) من المال... بعد عشرين عاماً، وحينما ذهبته لكى أبدل دفتر الخدمة الخاص بي، بعد تخلف لأكثر من أربع سنوات، رأيت نفس الشخص الذي رأيته أيام طفولتي وهم يقومون بفاتر هم إلى التجنيد، ولكنهم الآن يبضم الرؤوس بطريقون من نائب ضابط التجنيد تأشير

المسننة اكتاف نهر الغراف

صيقتها التي لم تستطع عمل أي شيء إلا النظر إلى صورتها معاً وهو ليس تدورتين عريضتين مقامتين على ما ذكر... وفوقهن بـلوزتين من الصوف الخالص.

على خط واحد مع الحقيقة، تردد حديقة دائرة أوصا شمال الحقيقة الوسطية، الخارجة من فم السوق، وهي أكبر الدحائق في المدينة، حيث الورود التي تلتف حول ورود من نوع آخر والتي تتشكل بجملها على أطواق من الورود الحمراء والصفراء والنفسجية والوردية، وعلى شمال هذه الحديقة (الكبيرة) تردد بناء الشبكة الحزبية التي ترمي على طرفها فرق حزبية غالباً ما تكتسي باللون الأخضر بسبب التجمع الكثيف للمرافق بلايسهم الخضراء...

على جانبي الحديقة يمتد فرعان إلى منطقتين مختلفتين تماماً عن بعضهما، فالفرع الأيمن يودي بك إلى حسي المعلمين، وهو الحسي المعروف بـالبيوت الجميلة والحدائق وساكنيه الذين أغلبهم من المعلمين والموظفين، أما الفرع الآخر فيؤدي في نهايةه إلى الشط، في حين يكتسي جانبه الأيمن بمدرستين من أقدم المدارس في المدينة، الأولى مدرسة الخنساء الابتدائية للبنات، والثانوية مدرسة المنهل الابتدائية للبنين، وكانت تتضمن بخطوة جيدة من بين المدارس الابتدائية، ذلك أن أغلب طلبتهما من سكان حسي المعلمين والمناطق

دافترهم من أجل سوقهم إلى خدمة الاحتياط، أو تأخير سوقهم شهراً أو شهرين... ترى هل تمت أممارنا بين (سبق إلى... وتسرح من.....).

شارع الكرد... الاحتشاد المغارب

في الجانب الآخر من الشارع، بعد السوق، يبدأ شارع طويل وله فروع كثيرة، وقد لا تتحقق على من كان بعمري، يسمى (شارع الكرد)، وهناك كان جل من يسكن فيه من الكرد الغيليين و(الراسبلية)، الذين استق THEM الحكمة من قرار التهجير، لا أعرف لماذا، لكنني أتوقع أن الأمر كان يتعلّق بـتغيير الجنسية من تبعية فارسية إلى تبعية عثمانية مقابل مبالغ كبيرة من المال...

بدأ شارع الكرد يتحول تدريجياً إلى شارع يسكنه العرب بعد حملة التهجير التي بدأت في العام 1979 وانتهت في العام 1981، وأنكر أن شفقة الوسطى صدية كردية (رسولية) نسبة إلى ديزفول الإيرانية اسمها زينب، وهي بعمر حسنة شر عاماً، وكانت مربرضة بـعذبة سامة لا يمكن إزالتها إلى بعملية كبيرة لا أعلم لماذا... وكان من المفترض أن تسافر إلى لندن لإجراء العملية بعد أن نصحها جميع الأطباء بذلك، إلا أن قرار التهجير شمل عائلتها وكان يجب على هذه العائلة إلى ترحل إلى الحدود العراقية الإيرانية بعد يومين فقط عندما ذهب والد زينب إلى مديرية الأمن العامة في الناصرية الموافقة على خروجه من العراق ولكن ليس إلى الحدود حيث الموت المحقق، بل إلى لندن، إلا أن بـغيرة الأمن رفضت عرضه وأصرت على تهجيره إلى الحدود، عدها قدم عرضاً يمكن أن يجعل قلوبهم تتبيض لمرة واحدة في حياتهم، وهو أن يترك ابنته تسافر وحدها إلى لندن لكنه تجرى لها العملية بعد أن قدم لهم جميع التقارير الطبية، وأنها ستموت بعد شهر على أكثر تقدير إذا لم تجر لها العملية... وبعدأخذ رد تم طرده وتهجيره هو وعائلته وطبعاً معهم زينب، بعد يومين من هذه الحادثة... الجميع كان ينظر إلى زينب وإلى ليها وهو يبكي على ابنته التي يرعاها تموت بين ذراعيه وهو يحملون سيارة حمل كبيرة ويريمون فيها كل الحيوانات...

بعد شهر من هذه الحادثة سلغا نياً وفاة زينب، وفي الحقيقة لا أعرف كيف وصل الخبر إلى المدينة، ولكنه على أية حال وصل في نهاية الأمر، وجعل أختي تبكي

البساتين وهي تأكل من جرف النهر

المجل) وبدأوا بعد الثانية بعد منتصف الليل يطوفون حول الصورة ويصيرون (لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك)... عندهم هم عليهم رجال من قسم الشرطة الغريب وأخذوه إلى حيث لا يعلم أحد حتى هذه الحلة، والرقيب في الملاجئ لا يعرفون من هؤلاء المخمورون الذي حمل الله

مراجع و کامات

للقاعة، أو (الجامعة) كما تسمى في ذي قار ولكلها تعيين عن مدينة قلعة صالح في محافظة ميسان، أكثر من مزار أو مرقد للصالحين، ذلك لأنها يوم كذا صغار لا يعرف أن تقسم بـ(الحسين) أو (العباس) كما فعل ناصر الدين الشافعى، بل كلها تقسم بـ(السيد طيف) (والمهول) أقصد: الحسين.....

وللآخرين مرقدان موجودان عند حدود المدينة ولبنى داخلها، وهم يوجدان خلف الشارع العام الذي يحد المدينة بباقيها من جهة اليمين... والآخر بمنها هو السيد طيف الذي يقع مباشرة أمام كراج السيارات العام، وهو الوحيد في المدينة، ومسافة أقل من كيلو متر واحد... وللسيد طيف حكايات كثيرة في المدينة، فقد أخبرني عن بعض حكاياته اثنان من الشيوخ، وهما أبو سلام (والذي لا أعرف اسمه الكامل) وهو أهالي المدينة بأنه ابن (السجارة) أو محضرى الجنان... وقد عمل مؤخراً كفاساً في بلدية المدينة، استقرت عن هذا الأمر وأسئلته: ما الذي دفعك للعمل، وبممثل هذا المكان؟ فأجابني وقال: لكي لا يسأل أحد من أهالي المدينة: لماذا يعمل أبو سلام ومن أين يعيش؟! الغريب في الأمر أن أبي سلام لم يشاهد أحد في يوم ما وهو يرتدي ملابس جديدة، فكل ما يبسو عليه الفخر والجحود المستمر... مع أنه لم يطلب أي شيء من أهل المدينة صدقة أو هبة، ولكنه غالباً ما يجلس في مقهى كانت سابقاً مسؤولة عن أحد الدارواش الذي له ممتلكة ثانية في الدروشة (خلفية)، إذ يلتقي حوله الكثير من أبناء الذين يطبلون منه معرفة ما ستؤول اليه أحوالهم في قادم الأيام، وهو لا ينطلي على أي اجر على هذه اللخدمات التي لا تقدر بثمن... آخر في يوم من الأيام الذي أمست رايطة تقافية باسم (منتدى المنتدى التقافي)، حينها سأله ان كنت سائحة في مشروعه هذا، قال لي: سيكون مشروعك أكبر مشروع تقافي في العراق وسيأتي إليك المتلقون من جميع أنحاء البلد (مع



ما اقيم مكان الدوّابات

المجاورة له، أي الطلبة الميسورين (سابقاً)... في حين نرى على جانب الفرع الاليري عددة أزرقة صغيرة تستند في نهايتها حتى تصلطم ببيت قديم لا اعرف كيف يبقى صامداً حتى هذه اللحظة!!

هل ثمة أحلٌ من نادٍ

يجعل المدينة من جانها الاسر نهر الغاف الذي يمتد على طولها بقوسات وتعرجاتديدة حتى تحسب انه يفتح فاه في مناطق وفقاً في مناطق أخرى، في الجنوب يلتف حول اليسارتين وفي الشمال يضل مع النادي الالبي الذي كان ينحرف حول خطانه لنجع (سيونون) قادني البررة وترصها في الرصيف المترابع أيام الصيف لكتب اسامينا عندما تكون عليها عجلات السيارات الخارجة والداخلة للنادي... ولا انسى متز� المدينة الذي لم يدخله قط، وقد اهل هذه منتصف العصوبيات ولم تزد سوى الشرك المحبط واللاقة التي لم يسمع منهاوى صفيحة زراء، أما النادي الثاني، فيقع في الفرع المجاور للسوق الصغير في وسط المدينة... حكي لي أنه في ذات ليلة في بداية الشهريات خرج ثلاثة مخمورين من النادي (بعضهما الغوا الحقيقة ونصبوا مكانهما صورة كبيرة للقائد

خلالى بحية واحدة لأن لديها اختاً واحدة... أصرت امي على معالجتها لي بعدما ينسن من علاج الاطباء الذين ارسلتني اليهم... دخلت الغرفة فرأيت حشداً كبيراً من الرجال يجلسون على البساط ويحيطون بالسيد، والعشرات من العلب المعدنية القيمة التي تحتوي على مواد اشتباك طيبة. وعندما رأى مسک بيدي التي عليها إحدى الحبات ويسقط عليها، ومن ثم خط عليها بقلم لزرق... كرر عمله هذا أربع مرات بعدد الحبات التي أصابتي، ومن ثم أطلقني إلى امي مع رفعه أحد اي مبلغ من المال جراء عمله.

بعد أيام قليلة شفعت تماماً، ولا اعرف حتى هذه اللحظة هل مدة حضانة الفيلروس انتهت ام هي برకات السيد طيف!

حدثي ابو سلام الكثير عن السيد طيف، فقال لي انه وقف على ثلاثة خارج المدينة قبل ليلة من موته وقال: هنا سيكون قبرري... وبالفعل مات في اليوم التالي ودفن في المكان نفسه! ومن ثم فإنه كثير الظهور بين مرقدى الحسين والعباس في كربلاء بعدها تردد لأربعين مرة دعاء (يا خفي الألطف نجنا مما نخفي ونخاف)... وما ثالر دهشتني قوله ابو سلام بأن لديه مرقدتين غير مرقده هذا، قبر في كربلاء وقبر بين مدینتی النجف والديوانية، مع انى لم اسمع بهذين المرقدين ولم يتحدد

يقيني بأنه لا يعرف ما معنى كلمة متفق) وحتى هذه اللحظة لم يأت أي متفق للانضمام الى رابطى التي لا املك منها سوى ورقة الاشتراك التي لم يوقع عليها احد...

الرجل الثاني الذي حدثي عن السيد طيف، هو صديق ابي سلام وهو ابو عباس (عوده شبار)، وهو من اقدم قصابي المدينة، الذي يملك بيتاً قديماً يقع في نهاية السوق، وخلف بيته توجد غرفة قديمة آوى فيها السيد طيف عند قدمومه الى المدينة من جهة مهوللة حتى هذه اللحظة، ولم يعرف اسمه الكامل إلا ابو عباس، إذ كتب الان على اللافتة المؤدية الى مرقده (الى مرقد السيد عبد الطيف رجب زبارة)...

جاء السيد طيف الى المدينة في ليلة ما وقاده الى منزل ابي عباس فأسكنه في الغرفة الخلفية لداره، تلك التي لم يتجلواز اثنائهما فرآشما من الاسفنج وبعض الرفوف التي اتروق ان السيد طيف هو الذي وضعها...

عندما كان عمري ست سنوات ادخلتني امي الى غرفة السيد طيف بعدها طردتها لأنها امرأة، وقد اصرت على معالجته لي بعدهما أصابتي حبة بسنداد (او الاخت كما هي معروفة شعبياً) وقد عرف بهذا الاسم لأنها غالباً ما توجد بعد الآخوات لكل شخص، إذ أصابتي بأربع حبات، لأن لدي أربع آخرات، كما اصابت فيما بعد ابنة



الكورنيش رنة المدينة

ای شخص عنہما...

في بداية التسعينيات، وفي أثناء حملة تهديم المرقد غير المُرخصة، تم تهديم مرقد السيد لطيف... في هذه الائتلاف ترد لغط كثير حول إمكانية تهديمه أو لا، فكرامات السيد لا يمكن أن تذهب بباء، وكل ماته سقوط فوضى (الشفل) وستجده من رحمة رحمه... إلا أن الآلات لا يمكن أن ترى بعده الكرامات حتى تهدم وحرثه ترابا... ولكن بعد خمس سنوات قام عدد من أهالى المدينة (الغيرين) بإعادة بنائه من جديد ليعود إلى مهمته الأساسية معا وليكون موردا ماليا جيدا لاستدانته أو لغيرها.

على بعد كيلو مترين او اكثر بقليل، وعلى نفس الخط الذي يحده الشارع العام للمدينة يقع المرقد الثاني الخاص بالمدنية، وهو مرقد السيد المجهول او (المجهول) كما يسميه الأهالى.. ولكن من السيد المجهول؟

سألت العديد من الأهالي عن هذا السيد... ولماذا سمي
بالمجهول. ولماذا لا يذهب الناس له إلّا في الأعياد؟
الجميل في الأمر أن جميع
الأهالي لا يعرفون من هو! حتى
وقدت على أحد الشيوخ الذين
يسكنون بالقرب منه وقال: رأينا
قبل ثلاثين سنة أو قلّ فتنى
صغرياً ميتاً في هذا المكان، فهنا
فهنا، وبعد مدة قصيرة جاءت
امرأة أى قبره وطلبت منه صبياً
بعدما ولدت خمس بنات ويشتت
من الأدعية، بعد مدة قصيرة
حملت قولدت ذكرًا!!! هذا كل
ما في الأمر، فقام الناس ببناء
ضريح كما ترى، يزورونه ولا
يعرفون من فيه، فـ———
بالمجهول... .

لكن الجميل في الأمر أن عوائل قلعة سكر لا يذهبون إلى هذين المرقدين في الأعياد والمناسبات الدينية، بل إلى مرقدين آخرين، الأول مرقد سيد محمد أبو فانوس (والذي



من أقدم بيوت المدينة



بزمه العسكري للدلاة على موقعها بين قسم الشرطة والامن العامة ودائرة التجنيد... اما الحديقة الوسطى الخارجية من فم السوق فقد حرقت الورود وباطلت الأرض ونصبت في وسطها صورة أخرى للقائد ولكن هذه المرة بازي العربي لالة على الموقع المدنى لها... في حين بقيت الحديقة الكبيرة كما هي، لكنها مليئة بالأغصان الميتة ويز هرذابة هنا او هناك.

تكررت أحداث 1980-1981 بعد عشرة أعوام تماماً، اي في العام 1991 بعد حرب الخليج الثانية تماماً، فمدينة قلعة سكر من أوائل المدن التي خرجت ضد البغتتين وتم قتل اكثراً من خمسة رفاق في هذا اليوم الذي خرج فيه جميع سكان المدينة، ولكن فيحقيقة الأمر ان العديد من اهل المدينة خرج لنهب دوافر الدولة من دون الاحساس بمسؤولية ما يخرجوا من أجله، ونذهب العديد من سيارات المواد الغذائية القادمة لتوزيع الحصنة التموينية على اهالي المدينة ولمدن الجاوراة ايضاً... وهذه الحالة ليست بالجديدة، حيث فكتت الدولة قبل عشر سنوات من هذه الحادثة حلقات الشيوخين وبعدهم المنتمين لحزب الشيوعي (الكافر)...

في اليوم التالي حدثت المجزرة الثالثة، حين قدمت عند الساعة العاشرة صباحاً قوات الحرس الجمهوري فاستقبلتهم (ريا) الشاب الفروسي بقوله: (فستان) ما كان من الضوابط إلا أن صوب المسدس تجاوز ألسفة فخرجه...

فتحت هذه الأحداث النار على اهل المدينة، بدأ البعضون بالتحول الى ثنايا، لأن أغلب رجال المدينة رفضوا الانخراط في حزب البعث، فقد لجا البعضون الى الريف لتجنيد ابنائهم... ويا لها من فرحة كبيرة، فابن الريف الذي كان لا يستطيع ارتداء البنطلون وليس بدلة زيتونية اللون، والذي لم يكن يجد صديقاً له في المدرسة او الشارع من اهل المدينة يتتحول الامر والناهي عليه... بعد أقل من سنة من تلك الحرب تحول الشارع الفاصل بين الحديقة الكبيرة والمستشفى الى قطعة خضراء، حيث تردد الشعيبة الحزبية!

بعد أن كان نهرب من المدرسة لنغير أسوار الحدائق الثلاث، أصبحنا نهرب من الشارع الوحيد الذي يربط هذه الحدائق ببعضها...

بعد صاحب الكرات الكبير، ويبعد عن المدينة مسافة لا تزيد على عشرة كيلومترات، والثاني مرقد (اسعيد) وهو تحرير للصحابي سعيد بن جبير الذي يقع بين مدينة الحى الواقعة شمال قلعة سكر بنحو خمسة وثلاثين كيلومتراً.

مأتم صامتة

بين العام 1980 والعام 1991 انقلب قلعة سكر من مدينة الحدائق الثلاث الى مدينة المجازر الثالث، إذ حدث فيها ثلاثة مجازر، الأولى كانت في العام 1980 حين جمع من كل بيتهن، على أقل تقدير، رجال أتمهم بأنه منتم الى حزب الدعاة (العمول)، والعديد منهم اتهموا من قبل بانتسابهم الى الحزب الشيوعي (الكافر)... حدث هذا تماماً بعد تهجير المسابلة الى الحدود العراقية الإيرانية، ومن بقي منهم، مازال متلهماً او غير مستقر على وضع ما، فلا هو بالعربي ولا هو من المرحليين فيعرف مصيره... مجرزان في عام واحد، واحدة بالكرد والسابلة والثانوية بالعرب... وهم أيضاً متهمون بانتسابهم الى إيران !!

تحولت المدينة الى مأتم صامتة، مأتم مكبوبة توقيع الكثير أنها ستفجر في لية لحظة... إلا أن الخوف استطاع ان يعص رغباتها وتركها كالبركان المتجمد. أذكر حينما كانا يسكن في شارع الجمعية عن هناك ثلاث بيوت يعلو صراخها في الليل وتفتح ابوابها في النهار للشمس... الشمس فقط، حيث لا أحد يستطع دخولها خوفاً من اتهامه بالتعاون مع العمالة. وبالفعل كان (العمالة) يبتعدون عن اهل المدينة لأتمهم أبناء المعدمين، وانسحب هذا الامر عليهم حتى في حال تخرجهم من الدراسة الاعدادية، فبدلاً من أن يذهبوا الى كلية التربية او اية كلية (ستعنة) أخرى فإنهم يذهبون للمعاهد حتى وإن كانت معدّلاتهم في الدراسة الاعدادية عالية، لأنهم سوف يطردون منها على كل حال... فامثلة سوق المدينة يأسحاب البسيطات المتعلمين الذين ينخرجون من سوق قلعة سكر ليدخلوا الى الحديقة الواقعة بين شفتني !!

هدأت المدينة... وانطفأ الغطاء، تغيرت بعدها المعالم، أصبح الناس يأتلفون مع ابناء (العملاء)، وتحولت الحدائق الثلاث الى علامات فارقة في وجنتها، حيث تحولت الحديقة الأولى الى صورة كبيرة لقادس الم لهم





السجن

مملكة ما وراء الشمس

عباس خضر

السجن متقل أيضاً، أما أمكنته فهو اهدي وزمانها وتهمنها فهي من العراق: من معتقل أمن الرصافة ومعتقل مديرية الأمن العامة في بغداد (1993-1995) والتهمة: سياسية.

الحديث بالتفصيل عن هذه الأسكنة وعر المسالك، فمن جهة يشد الحاجز النفسي الذي يقف بوجه هذا النشط في المشاعر والذاكرة بين زوارين مختلف الأشكال والمشارب، ومن جهة أخرى لاختلاف أشكال هذه الأسكنة وظروفيها، السجن نفسه وزارينه لا يتشابه أبداً في المكان نفسه، فلا يمكن تصور أن الزوارين تتباين حتى لو كان الأمر مجرد جدران أو قضبان حديدية، وأن معقل مديرية الأمن العامة في بغداد يشبه مكان ووسائل معقل أمن الرصافة، للزوارين عولها أيضاً. لذا، وكيفما يكن الحديث لعلم الخطأ والثقة سرcker على الأهم وبغض النظر للقطات من هذا العالم من دون للرجل في الدقائق الصغيرة.

يجب العرقى على سؤال: "أين فلان الفلاني؟" إذا كان المذكور معتقلًا: "إيه وراء الشعمس". إن هذه التعبير العراقي هو الأكثر دقة، أن هنالك كائناً ما يختفي من الوجود بمجرد الدخول من باب المعتقل، وهذا الكائن يدعى: الشمس. وليس هذا وحسب، إنما هنالك عالم لا تعرفه الشمس، ولم تترى عليه يوماً يتحرّك ويسري في باطن الأرض، ويحده وجوده وزمانه ليس شروق الشمس وغروبها، إنما كائنات أخرى، وفي أغلب الأحيان هي كوايس بربطة عنق.

ل لكن، ما السجن أو المعتقل؟ أقصد هنا كمكان وزمان لا كمؤسسة فقط. لأنّن بوجود أحد يسأل نفسه مثل هذا السؤال عندما يسقط لفّ أبواب مغلقة بـلحاكم، الإقامة في السجن تعلم المرء القرب من الجدران والأرض والوسائل والأصوات والروائح والضرائح والأحلام والكرابيس والأشباح بشكل مختلف تماماً مما اعتاده الآخرون، حتى الحواس تحول إلى حواس خارقة، إليها اقامة لا يمكن وصفها من دون الخوض بالهلومة، وهناك تصبح أشياء كثيرة، لا تخطر على بال أحد، وكأنها جزء لا يتجزأ من الأحلام المرعبة. إن السجن عالم خيالي ولكنه عالم مخيف، موغل بالكوايس، فهو الشيء الوحيد الذي يمتلك أن يحدد العالم باربعية جدران لا أكثر.

لها مملكة وراء الشمس وكانتها عندما يكون الحديث عن المعطلات العراقية: القبور، عصابة العينين، المحقق، السجناء، السجن، الجدران والكتابات

السجن هو المكان الوحيد الذي يصل فيه المرء إلى نتيجة واحدة، خلاصتها: أن الإنسان الحديث وبرغم كل محاولاته في الظهور كمتحضر لم يتعد تجاهله القشور والدليل على ذلك أن بدايته وبربريته تصل أعلى مستوياتها وتتجلى بوضوح لا يصدق عندما يكون سجاناً.

محاولة قراءة بربرية هذا الإنسان، استذكار أفق البربرية، في تشكيل المكان (السجن) كعالم مختلف بما يحيط ويرتبط به، استذكار ليس من خارج الزنزانة، إنما من داخلها، من خلف أربعة جدران، من داخل زنزانة انفرادية أو جماعية... هذه المحاولة هي محاولة في الألم، محاولة لا مفر منها، ولا مفر كذلك من شواهد من وقع في قبضة ززانة، والتي وبرغم أنهايتها، تقصد الشواهد، وتتعلق بأمكنة محددة، لكنها حتماً تخيّل إلى أرض ممتدة، والشواهد هنا، هي شواهد، هي محاولة في الضحك والبكاء والحرق والجروح والذاكرة، محاولة القول للسجن "يأني نسيت أني نسيتك"، فالسجن وبرغم الانفلات المكاني منه، يحمله المرء أحياً في داخله أينما حل.

الزجاجة، وذلك بإجلال المعتقل عليهما حتى يغور الجزء الأكبر منها في مؤخرته، وهي عادة ما تكون زجاجة بيسي كولا. ولكن، لماذا زجاجة بيسي كولا؟ وأعقب السجائر: بإطافتها في جسد المعتقل بدلًا من منفحة السجائر، والقية؟!.... والشمس فلا وجود لها، إنها لا تشرق وتغرب، هنا جدران وقضبان وباب حديدي موصود لا أكثر.

الدخول في تفاصيل عالم السجن لا يأتي فجأة، إنما بالاعتاد وحسب مدة الإقامة. أشياء كثيرة لا يلاحظها المرء أول الأمر، أقصد أيام التحقيق. فهذه الأيام هي أيام خاصة، لا يرتبط فيها المعتقل بشيء كما يرتبط فيها بجسده وذاته ومشاعره، وأقصد بهمده، بالجروح التي تتركها حفارات التحقيق، وأقصد بذلك أنه محاولة للوصول إلى صور من الماضي تخفي عمليات التعذيب وتخفف حدة اضطرابه. وأقصد بـ«شاعره»، الخوف والشعور بالخوف على الآخرين، وكل كلمة قد تكبد الكثرين من يعرفونه أعمارهم. حالة الخوف والرعب والقلق التي يعيشها السجين في أيام التحقيق تجعله لا يفك إلّا بشيء واحد فقط هو «كيف أخرج من

والرسوم والتواريخ التي تملاها، القفل، القزاد، الوسائد العفنة، رائحة الخراء، رائحة العفونة، مرهم السلف، رغيف الخبز... وسائل التعذيب: العصي بأشكالها المختلفة: النحيفة والغليظة، التي من الصاج والتي من المعدن أو الخشب العادي، وكذلك التي من ألياف معدنية والتي تحتوي على شكل كروي من الفير الأسود يشبه الكرة في أحد أطرافها وذلك المماثلة بالمسامير. وجهاز الصعقات الكهربائية: الشبيه بجهاز الهاتف بأسلاك تنتهي بقبايضين، تثبتان على إبهام القدمين أو شحمة الأنثى أو العضو التناسلي. واللقمة: حيث تقيد يدي المرأة بالقيود إلى الخلف، ثم يعلق في السقف بدلًا من المرروحة السقافية، والتعليق: بالتعليق على شباك مثلاً أو سلاسل خاصة ملتصقة بادة على الحائط، ويكون التعليق كطريقة صلب المسيح تماماً، والخيانة: وفيها يقيد السجين بجدل وعصا توسط الحال، ثم تشكيلها بطريقة خاصة على جسد المعتقل وعلى كرسي، بحيث تصبح الأقدام مرفرفة للسماء والمؤخرة على مقدم الكرسي والرأس إلى الأعلى على الأرض، وهذا يتم التعذيب بالضرب على القدمين بالعصي أو بالصعقات الكهربائية (البطل): وتعني بالعربية الفصحى:



غرفة التحقيق بأقل ما يمكن من الخسائر؟ ولكن، أية خسائر؟ إنها أيام رهيبة يعيشها المرء عادة في غرفة انفرادية مخصوص بالعينين ومقيدة اليدين. وفيها يتم اكتشاف عالم الزنزانة الأولى بطريقة الغيب: تبدأ بتلمس الأرض باليدين المقيدتين إلى الخلف. ومن خلال القسمين يتم اكتشاف طول وعرض الزنزانة. إن استكشاف المكان الأمثل والأقل عقبات وعثرات لتمديد الجسد على الأرض والنوم هي أولى حوارات البقاء في العالم الجديد... بعد حلقات التحقيق الأولى تتحدى الذاكرة شكلًا جديداً، شكلًا أقرب إلى المبرمج، فكلما يساق السجينين من الزنزانة ثم يعاد إليها، يرمي نفسه على الأرض متخذًا الشكل الذي اتخذه قبل ذلك. فهو يعيّن معاوبيه تسلیط الذاكرة أن تتحوّل إلى عينين طريقة التذكر؟

حاسة السمع هي الأخرى، كلما طال أمد تعصيم العينين، تدخل أيضًا في مرحلة جديدة، وهي القدرة الخارقة على سماع ما لا يسمع... أصوات وأصوات. الأذن تخترق الجدار وتسمع هدير أصوات لا تعدد. الأمر يبدو باكلاه وكأنه طوسيّة. كنت أستغرب لسماعي صوت أغاث وأصوات لا تعد قادمة من البعيد في أولى أيام إقامتي في معقل أنمن الرصافة، وبإذانته عندما كنت مخصوص العينين وتحت فترة التحقيق، كنت أطّل أن هذه الأصوات مجرد طوسيّة. ولكن، بعد سنتين طويلة، وتحديداً بعد 9 نيسان 2003 زرت معقل أمن الرصافة مثل الكثيرين الذين جاءوازيارة سنوات أعمارهم التي مضت سريعة وبطيئة في زنازين هذا المعقل. كانت الأبواب مفتوحة على مصراعيه، ولا اثر سوى لراشة المغوننة وهي تهب من كل زاوية. لقد كان هذا المعقل مجرد منزل، تم تصميمه على شكل سجن باتفاق وسر اديب وزنازين انفرادية وجماعية وغرف تحقيق، ويقع بالقرب من منازل كثيرة يقطنها أشخاص مثلك، ويفربه كذلك أحد أشهر القادة في بغداد. وقفت في زنازني الأولى وحاولت أن أسمع صوتها وأحداً من الأصوات القادمة من خارج الزنزانة، من البيوت المجاورة التي كنت أتنصت عليها ذات يوم من نفس المكان، ولكن وبرغم أن أبواب السجن كانت مفتوحة على مصراعيه، لم أفلح أن ألتقط صوتاً واحداً. انتهاء قلق أيام التحقيق يعني الدخول الفعلي في عالم الجهد. إنها مرحلة اكتشاف الجسد من جديد. خلال التحقيق لا يفك المرء بجروح ليلة التحقيق السابقة، إنما بجروح ليلة التحقيق القادمة. العلاقة بالجسد تتقلب على



الجوع هو الآخر من الأشياء الأكثر قسوة في المعقلن. وهذا أيضاً يتحول بدوره إلى شغل شاغل. كل يوم يأتي السجان برغيف خبز لكل معقلن، المعقلن الجديد يقوم بالثامر رغيف الخبز سرعة وعلى دفعه واحدة ثم يظل يقتبل جوحاً بقية النهار والليل، أما السجناء القدماء فهم يتعلمونون من الرغيف بطريقة مختلفة وكثيرة، يقسمون بقطيع الرغيف إلى قطع صغيرة جداً وتقسيم القطع إلى ثلاثة وجبات، وتركها عرضة للهواء حتى تجف وتتصبح صلبة، وبهذا يضمنون مضغ طويلاً وشواراً لأن هناك ما يتذكر بين أسنانهم، إضافة إلى بطء الأكل حيث يأكلون القطع الصغيرة كما يفعل الطيور بالضبط الواحدة تلو الأخرى. بعد وجبة العشاء يتضرر الجميع اليوم التالي والرغيف الجديد، وبعدهم يقوم بشد بطنه بقوة بإحدى قطع ملasse حتى يتحمل جوع الليل الطويل وخصوصاً أولئك الذين يشتغلون بالذمم بمرض القرحة، وهذا يأتي رغيف الخبز ممزوجاً، ينتظركم الجميع، وعندما يصل، يقتلك المرء بين يديه ويقبله ثم يوضع على وجهه وينظر إلى الأعلى، إلى السقف، بما أن السماء لا ترى، ليقول لها "تذكرة أتيتها السماء!" هذا الرغيف لا يثير أحد على إفحائه، إنما يتركه المرء مرحاً قبالة العين دوماً، وخصوصاً أن فنار السجن، بذكائها الخارق، لا تترك وسيلة ممكنة ومستحيلة لاجريها للحصول عليه.

لعبة رغيف الخبز ليست باللعبة المسليمة، فالأكل على طريقة الطيور تتحول بمرور الأيام إلى مشهد رعب مخيف لأن التغوط أخذ شكلًا جديداً، حيث تحول الخراء إلى قطع صغيرة صلبة وبasisة تشبه البغرور ممزوجة بالتمخرج بصعوبة بالغة ومعها أصوات لم يسمعها الجميع وهي تخرج من بيت الراحة وتدور في فضاء الزنازين.

أذكر، ذات يوم، وبمناسبة العيد الوطني العراقي، دخل ضابط الأمن في مديرية الأمن العامة على الموقف العام حيث يقيّع المئات من المساجين في زنازين متراصة مفتوحة على بعضها، تفصلها قضبان حديدية قاتلة: "اليوم، بمناسبة العيد الوطني هناك مكرمة من الرئيس لجميع المعقلين السياسيين". الكل تصور أن الأمر يتعلق بمعفو عام، ولكن بعد دقائق دخلت إلى الموقف علب كارتون وقام موزع لرغفة الخبز هذه المرة بإخراج البرتقالي من الكارتون وأعطاء واحدة لكل سجين، وعندما سأله البعض: "ما هذه؟" قال: "إنها مكرمة الرئيس" ...

فجأة، جرح الألسن يصبح غير مهم خوفاً من جرح أعمق قد يأتي قريبًا جداً. بعد انتهاء فترة التحقير يكتشف المرء جسده مجدداً. حتى الألم يصبح أكثر حضوراً وفورة. تبدأ العلاقة بالتطور. القرب يشتت، تملأ غاصب الألم صبيح الشعل الشاغل. طول هذه المدة يعتقد على حجم الجروح وعمقها. الشفاء السريع يعني الدخول الفعلي في عالم الزنزانة والتي عادة ما تكون زنزاناً جماعية. وهنا، يبدأ التعرف على السجناء والزائر الليلى المزمن: القفل. حيث يبدأ دبيب القفل في كل زوايا الجسد، تحت الإبط، وبين الخصيدين، وبين الساقين. تبدأ رحلة جديدة وسهرات خاصة للقبض على الكائنات المهاجمة. لعبة الهجوم والهجوم المضاد. قبل لا نهاية له يأتي من الواسدان، من الملابس، أحياناً يختفي المرء أن القفل يخرج من الجلد نفسه. حتى هذه تصريح بعد طول إقامة يوميات عادية وسهرات لا تخلو أحياناً من المتعة، ألم أقل أنه عالم لا تشرق وتغرب عليه الشمس!

كل ليلة يجلس السجناء: كم أصطدمت؟ يسأل أحدهم، ويجيبه آخر: 20: قملة، يدخل ثالث في الحديث: أصطدمت واحدة، هذه ليست قملة إنها قيل ... ويرد عليه: هذه قملة راحتها عطنة، يبدو أنها مدت دمك قبل أن تأتيني.

سهرات أصطدام القفل، هي أهم سهرات المعقلنين، إنها اللعبة الأشهر على الإطلاق. لا يوجد في التاريخ البشري من قام بمجازر جماعية ضد القسم المأجзор التي ألقاها المعقلنون العرقيون في سجون البغيث. زلت أفك للبيوم، بماذا كان يفكر القفل وهو يشاهد تلك المجازر؟ ولماذا لم يتوقف عن الهجوم، هل هو الثمار المغيرة؟ عموماً بعد القفل يأتي الفرز وهذه الحشرات المعروفة بتواجدها في جلود الماشية لا تختفي في زوايا الملابس إنما تحت الجلد وتضع بيساضها أيضاً هناك. وبهذا يتحول المشهد إلى عمليات هرش وحك الليل بطلوه. لهذا كانت الأمراض الجلدية هي من الأمراض العادمة جداً مثل مرض الجرب الذي يهد من أشهر الأمراض الجلدية في المعقلنات العراقية ويتهم القضاة عليه باستعمال مرمي السلفر. ومع القفل والفراد تجتمع الرطوبة لتكتفي على البعض بمرض الكلكري الذي يبدأ من القدمين وينتشر في الدم، فيحوله إلى سائل تخين أسود اللون ممزوجاً بأسوائل الشفخة البيضاء، التي تتصعد إلى قبة أجزاء الجسد حتى ينتهي معها النفس الأخير.

ألم أقل إنها مملكة ما وراء الشمس والحواس الخارقة؟

الكتابة على الجدران أو قراءة ما كُتب هو شغل آخر، ولنقل هواية، بما إن الأوراق والأقلام والكتب من متنة سفلًا. وسائل الكتابة كانت مختلفة، البعض كان يستعمل أظافره والبعض الآخر حجارة صغيرة يتم تببيتها بالحراك على الأرض. أما الكتابات فكانت متعددة وأغلبها كانت مقتربة في مضامينها وأحياناً في مفرداتها. أتذكر أن أول نص قرأته على جدران الزنزانة الافتراضية في معبد أمن الرصافة كان: "السجن لي مرتبة والقديلي خلال والمشقة يائي أرجوحة الأبطال". نفس النص قرأته في معقل الأمن العامة في الموقف العام ولكن بدلاً من كلمة "يامي" كتبت كلمة "يا على". هذا كل ما يمكن المرء أن يحلم به في عالم ما وراء الشمس؟ كتابات لا تعد ولا تحصى، تتغول بمرور الأيام إلى لعنة، إلى شاشة تفاصير، لوحات أو كلمات مقاطعة، وأيضاً إلى سجل يمكن من خلاله معرفة من مرافقيل هذا الزمن من هنا وعلى هذه الساكنة كان الوطن مقسمًا إلى كائنات تبحث عن مهرب: "اللهم كما أخرجت يوسف من الجب، أخرجي من هنا" قلت في نفسي: دعاء شخص متدين. "يا عمال العالم انحدوا" شيوعي، "دخيلك يا على بن أبي طالب" شيعي، "أبا بريء كبراء الذئب من دم يوسف" لا أدرى، "ربما شارع شخص متدين". لا للذكاكورية؟ ربما علماني منأعضاء حركات المعارضة الجديدة. كردستان حرّة؟ كرد. جدران الزنازين كانت تارخ شعب. جدران بدلالات لا تعد ورموز لا تحصى، ومع الصور التي تشكلها بقمع الرطوبية تتسو الجدران، وكانتها أرض جافة تقطنها طبقة طحالب خضراء خفيفة، وبخطوط وكتابات في أعلىها غير فنية، وكانتها خربشات طفل. الرسومات التي يخلفها السجناء وراءهم قليلة جداً، إنهم على الأغلب يميلون للكتابة. الشيء الوحيد الذي يقف صاحلاً هو الحمام التي رُست وهي تتأهّل للطيران. في كل زنزانة زرتها تقف في منتصف الزنزانة حمامات تتأهّل للطيران. هل كان يفكّر من رسم هذه الحمامات بالطيران معها؟ ولماذا كانت تتشابه الحمامات على جدران تلك الزنازين؟ السجناء الجدد يسجلون عادة موعد دخولهم السجن فقط ويكتفون بالفراوة بين حين وأخر. تواريخت كثيرة بعضهم فلاح في تسجيل يوم خروجه من الزنزانة وبعدهم بقى يوم الدخول من دون



- برقة؟

- لا تتعجب جناب حضرتك؟؟

- وأين الرغيف

- اليوم، لا يوجد رغيف، ففقط برقة!!

قصور هذه البرقة تحولت إلى مطبخات لقطع الخبز في الأيام التالية. أغبل السجناء احتظروا بفتر البرقان ليطبوّوا به قطع الخبز، وبعدهم تقدّن في صنع كعك بطعم البرقان لمدة شهر طويلة. وذلك بطحن قطعة صغيرة من قبر البرقان ومزجها بالماء ثم رشها على قطع الخبز الصغيرة. إن هذا الطعم لا يستثنى، كما أتصور، أي شخص خارج حدود جوع المعتقل أن يشعر بمذاقه. والسبب بسيط جدّاً، وذلك لأن حاسة الشم التي لا تُعرّف سوى رائحة الخبز لأشهر أو سنوات تتحول إلى حاسة خارقة قادرّة على شم ما لا يشم. حتى أن السجناء كانوا يعرفون جيداً ما يطبخ حرس السجن في مطبخهم البعيد عن طريق الشم. من البصل وحتى اللحم وأحياناً تميّز نوع الزيت المستعمل. وعلى بعد أكثر من كيلو متر كان البعض قادرًا على معرفة نوع العطر الذي يستعمله الحراس. ولكن حاسة الشم الخارقة تحولت كذلك إلى وبال آخر، ففيستيريا الجوع كانت تشتت كلما كانت رائحة الطعام قريبة وشهية أهلاً. وإن أبلغ إذا قلت، إن الحلم الأوحد للمعتقلين العراقيين خلال السعفيّيات كان هو الرغبة بوجبة طعام لا أكثر.

نحو سقف داعيا من الله أن يرمي البلاء على المحقق وحرس السجن ويشفيهم بأقرب الناس إلى قلوبهم! وأخر كان يجلس محفقا بالجدار لساعات من دون أن يتبشّر بكلمة. وثنان كان يتسلّى بالاستئذان لصوت المصباح، الذي كان يخرج صوتاً أقرب إلى الأذى بسبب عطل فيه، وأطلق على هذا الصوت "موسيقى المصباح العليل". وثالث النتشلي بالاستئذان إلى كوابيّات المعتقلين الجدد. ورابع بالتحليل والتخيّن، فكما خرج سجين ولم يرجع لزنته، تبدأ نظريةاته حول المكان المحتمل الذي ذهب إليه. وخامس وسادس... أما، فهو يأتي في المعتقل كانت هي صيد القمل أو كتابة الشعر على الجدران، وللبيوم لا أعرف بالضبط، ما نوعية العلاقة بين صيد القمل وكتابية الشعر؟

الحياة تحت الشمس، ويرغب بشاعتها أيضاً، هي الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نقدمه للإنسان من دون الشعور بالذنب... أما ما خلفها فلا يحدث شيء غير ببريرية الإنسان وبدائنيه ووحشته.

تاريخ رحل. الكلمات تختفي دوماً لتأتي كتابة جديدة. الكتابات الوحيدة الباقية هي الآيات القرآنية حيث لا يتجرأ أحد على حموها من الجدار خوفاً من ضرب النساء! الآيات القرآنية المتعارف عليها على جدران السجن هي آية حلم رفيق النبي يوسف في السجن وما يتعلّق بها من الآيات الأخرى وكلّاك آية الجب. وأسم الشخصية التاريخية الأكثر حضوراً على الجدران هو الإمام الكاظم، أحد آئمّة الشيعة الذي سجن على يد هارون الرشيد. إنه عالم آخر، ألم أقل لكم، حتى التاريخ يختصر في السجون على شكل سجين قابع بين أربعة جدران.

الهوايات كثيرة في السجن، فإذا كان حرس السجن يتسلّون بالرقص على أجساد السجناء بين حين وآخر، كالسحل متلاً على طول الموقف العام أو الصعود على كتف أحدهم ثم أمره بالزحف من بداية الممر حتى آخر، كانت هوايات السجناء ذات أشكال أخرى. أحدهم كان يجلس الليل ببطوله وهو يرفع رأسه ويديه اح





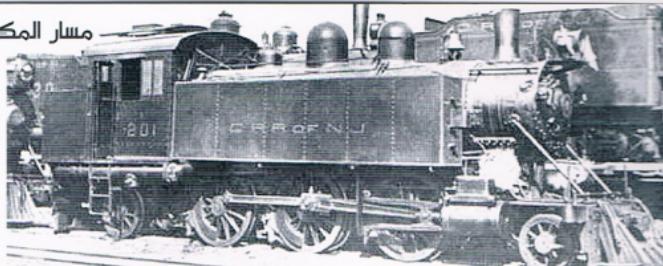
محطة قطار السماوة

طاجيق فاروق



لكن حلقات الدهشة سر عَنْ ما وُدِّيَتْ، وطُرِّتْ تحتَ
غير ما تَلَاهَا منْ أحداثٍ. فانتَصَرَتْ العَقْلُ في الدَّوَابِينَ،
وأَفْسَرَ الرَّجُالُ بِالشَّوَارِبِ، وانسَلَتْ نَظَرَاتُ الْدَّهْشَةِ مِنْ
الْعَيْنَ لِتَحْطِي بِهَا نَظَرَاتَ الرَّضْنِ. فَأَشَرَّتِ الْبَنَادِقُ،
وَالخَاجَرُ، وَالْفَالَّاتُ، وَالْمَكَارِيُّ، بِوَجْهِ الْحَسْنَى الَّذِي
تَمَرَّسَ بِالْحَصْنَوْنَ الَّتِي شَرَعَ بَيْنَهَا وَمِنْهَا حَسْنَ السَّماَوَةِ
الَّذِي لَمْ يَدْرِ بِخَلْدِ صَمْمَهُ الْمَهْنِدُسُ الْإِنْكِلِزِيُّ إِنْ أَيْنَاءَ
جَلَّتْ مِيَاهُولُونَهُ إِلَى مَحَطةِ الْقَطَارِ حِينْ اسْتَدَعَتِ الْحَاجَةُ
إِلَى بَسْطِ الْفَنْدُوْنِ إِنْشَاءَ أَوْلَ سَكَّةَ حِيدْرَبَادِ بَيْنِ الْعَاصِمَةِ
بَغْدَادِ وَقَاعِدَ الشَّعْبِيَّةِ فِي الْبَصَرَةِ.
أَوْلَ مَا يَلْوحُ لِعَيْنِي الرَّائِي بِالْمَحَطةِ الَّتِي يَشْمَخُ مَطَلاً
عَلَى الْجَهَاتِ الْأَرْبَعِ. ثُمْ بِوَابِتَاهَا الْكِبِيرَتَانِ، الْغَرْبِيَّةُ الْمَطَلَّةُ
عَلَى قَاطِعَ شَارِعِ مَصْبُوْيِّ، وَشَارِعِ الْفَانِدَقِ... حِيثُ
الْمَطَاعِمُ الَّتِي تَرْجُبُ بِالْفَقِينِ، وَالْمَرْقَةُ الْمَفْرُوشَةُ عَلَى
كَوْاْكَرْ فَقَرَاءَ نَطْفَةِ الشَّوَّصَةِ، الْحَدِّ الْفَالِصُ بَيْنِ الْبَلَادِ
وَالْبَادِيَّةِ. الْجَدَرُونَ الْعَالِيَّةُ مُشَيَّدَةُ الْطَّابِوقِ الْمَقْلُومِ
بِالْإِسْمَنَتِ، تَدُوِّي مِتَهْرَةً فِي أَجزَائِهَا كَلْكَاتِيُّونَ الْفَقَرَاءِ. فِي
كَوَافِهِ الْبَرْجِ وَجَدَ الْحَمَامُ الْحَسِينِيُّ مَنَازِلَ الْتَّنَاهِلِ، فَاقْتَرَشَهَا
بِالْأَعْشَالِ... بِيَبِسِّ، يَبِرِّخُ، وَيَرِسِّمُ بِذَرْوَكَهِ جَدَارِيَّاتِ
عَغْرِيَّةِ...
فِي سَنِينِ خَلتْ كَانَتْ هَذَا رَؤُوسُ بَخْرُدُ لِعَامَاتِ، تَطَلَّ
مِنْ تَلَكَ الْكُورِيِّ، يَوْمَ كَانَتْ مَرْصَدًا عَسْكَرِيًّا لِلْإِنْكَارِ، فِي
الْدَّاخِلِ تَمَرَّكَتْ فَلَوْرَةُ صَغِيرَةٍ وَسَطَ السَّاحَةِ الْوَاسِعَةِ
الْمَكْشُوفَةِ لِلْسَّماءِ، الْمَحَاطَةُ بِأَرْبَعِ طَوَارِمٍ، شَكَلَ أَضْلاعَ
مَرْبِعِ السَّاحَةِ، وَمِنْهَا تَطَلَّ أَبْسَابُ غَرْفَ نَاظِرِ الْمَحَطةِ،
وَمَفْوِضِ الْشَّرْطَةِ، وَقَاطِعِ التَّذَاكِرِ، وَمَفْتَشِي الْقَطَارِ،
وَالْقَنَبِينِ وَالْمَوْظِفِينِ، ثُمْ قُضِيَّانِ بَابِ سِجَنِ الْمَحَطةِ..
الْطَّابِيقُ الْعَلَويُّ كَاسْلَقِيُّ، تَتَوَزَّعُ فِي مَحِيطِ مَرْبِيعِهِ غَرَفَ
عَدَّ، لَا تَخْتَلُ فِي مَسَاحَتِهَا وَتَصْبِحُهَا عَنْ غَرْفِ الْمَحَطةِ
الْأُخْرَى، وَقَدْ اتَّصَبَ فِي الطَّوَارِمِ الْطَّبَايَّاً بِسَبَبِ الشَّبَّ
الْمَصْبُوْنِ بِالْأَنْهَارِ... وَالْأَخْضَرُ هُوَ اللَّوْنُ الْسَّانِدُ فِي
الْمَحَطةِ، فَقَدْ اكْتَتَ بِالْأَبْوَابِ وَالشَّابِيكِ الْأَسْجِيَّةِ،
وَالْأَرْلَكِ الْمَبْثُوتِ وَهَنْيَ لَحْواضِ حَنَقِيَّاتِ المَاءِ الْكَبِيرَةِ
الَّتِي تَكْتُبُ عَلَى زَوْبِيَّهَا لِعَيْنِي عِبَارَةً مَاءَ صَالِحٌ لِلشَّرْبِ،
تَقْلِيلًا فِي الْأَزْوَاجِ الْسَّرِّيِّ، عِبَارَةٌ drinking water، فِي
أَعْلَى الْوَاهِجَةِ الْمَقَابِلَةِ لِلْسَّكَّةِ ثَبَّتَتْ سَاعَةَ الْمَحَطةِ بِهِيَّ
يَرِى عَقَارِبِهَا الْقَادِمُونَ مِنْ جَمِيعِ الْجَهَاتِ... عَلَى الرَّصِيفِ
الْمَحَانِي لِلْسَّكَّةِ الْحَدِيدِ، امْتَدَتْ مَظَلَّةُ طَوِيلَةٍ تَسْتَدِدُ إِلَى عَدَّةِ
أَصْدَمَةٍ مِنْ الإِسْمَنَتِ لِحَمَامِيَّةِ الْمُسْتَقْبَلِينَ وَالْمُودَعِينَ مِنْ
الْمَطَرِ شَتَاءً، وَشَوَّاطِيْلِ الشَّمْسِ صِيفًا...
لِلْمَحَطةِ مُوَدَّعَانَ مَعَ الصَّبْحِ، مُوَدَّعَنَّاً، وَمُوَدَّعَنَّاً لِلَّيْلِيِّ،

فِي زَمْنٍ يَكْدُسُ أَحَدَاهُ النَّافِقَةَ فِي سَرَادِيبِ
الْتَّارِيخِ، تَسْقُفُ الْمَذَاكِرَة، فَتَسْقِيقُ أَيَّامِ
الْبَرَاءَةِ مِنْ سَيَاقِهَا لِتَمَرِّقِ الْمَحَظَّاتِ السَّعِيدَةِ
شَرَاقِ النَّسِيَّانِ، وَتَقْلِيقُ باجْنَحةِ الْمَخَيَّالِ فِي
رِيَاضِ الْمَاضِيِّ السَّاکِنِ بَيْنِ الْجَوَانِحِ، الْمَوْشَومِ فِي
أَخْدَادِ الْسَّنِينِ... أَيَّةَ مَتَعَةٍ تَضَاهِي مَتَعَةَ
الْأَيَّامِ الْخَوَالِ؟
سُؤَالٌ يَفْتَرُ رَذَادَ صَدِيِّ فِي الْفَوَادِ كَلَمَا لَاحَ
لِعَيْنِي مَحَطةُ قَطَارِ السَّماَوَةِ... هَذِهِ الْمَحَطةُ
الْقَدِيمَةُ الشَّاشِخَةُ كَوْشٌ عَلَى حِيدَ امْرَأَةٍ
جَنُوبِيَّةٍ مَتَالِلَةٍ فِي ضَيَّاءِ غَرَبِ النَّهَارِ، عَرَوْسُ
الْبَادِيَّةِ هَذِهِ... خَلَعَتْ عَلَيْهَا الْمَتَقَرِّراتِ
الْسِّيَاسِيَّةِ شَيَّابَاً حَرْبَانِيَّةً. فَمِنْ حَامِيَّةِ عَسْكَرِيَّةِ
الْإِنْكِلِزِيَّةِ، إِلَى مَحَطةِ الْقَطَارِ، وَمِنْ مَطْعَمِ وَيَارِ
سِيَاحِيِّ، إِلَى مَوْقِفِ تَسْفِيرَاتِ، ثُمَّ مَقْرِرِ قِيَادَةِ
لِقَوْاتِ الْحَلُودِ، قَبْلَ أَنْ تَتَنَفَّعَ أَخْيَرًا بِعِيَادَةِ
الْخَشُوعِ، مَدْرَسَةِ حَزوْنِيَّةٍ لِتَحْفيظِ الْقُرْآنِ، بَعْدَ
أَنْ وَضَعَتِ الْعَرَبُ الْعَالِيَّةَ الْأَوْلَى أَوْرَاهَا.
فَوَجَنَتِ السَّماَوَةُ سَلِيلَةُ الْأَلَّهِ سَمَوِيِّ، إِلَهُ مَعِيدِ
أَيَّاً الْوَرْكَانِيِّ، يَزْمُرُ الْوَافِدِينَ مِنْ الْجَنْدُونِ
الْإِنْكِلِزِيِّ الْمَتَمَرِّسِينَ خَلْفَ قَطْعَانِ الْهَنْدُونِ
الْمُسْلِمِينَ وَالسِّيَخَ وَالْكَرْكَةِ، وَهُمْ يَسْتَعِرُّونَ
صَدُورَهُمُ الْمَرْجُومَةِ بِأَوْسِمَةِ النَّصْرِ عَلَى أَحْفَادِ
سَلِيمَانِ الْقَافُونِيِّ.. يَوْمَهَا اسْتَدَعَتِ الْدَّهْشَةُ
إِتَّسَاعَ الْعَيْنَ الْمَبْهُورَةِ بِالْوَجْوهِ الْبَلِقِ، وَالشَّعُورُ
الشَّرِّ، وَالْعَيْنَ الْمَلُوْنَةِ، وَالرَّكَبِ الْمَكْشُوفَةِ،
وَالْبَنَادِقِ الْطَّوِيلَةِ، وَالْمَلَابِسِ الْكَاكِيَّةِ، وَالْغَوْدِ
الَّتِي تَشَبَّهُ الطَّوَاجِنِ...



يطلق النازل صفارته للتحية، فيرد الصاعد التحية بأحسن منها.. تتحول المحطة إلى خلية تحول.. يهجم الحمالون على المغادرين والوافدين، يطلق حناجر البساطة المحتلوبون: (حب سكائر علك)... (بيسى بارد)... (فيز حر)... (لقة طيبة)... (شاي أبو الهيل)... تملئ العربات بالضحك والتحيات والصراخ والمداهنة.. يكاء اطفال، وأصوات نساء ورجال.. عدها نترك نحن الطلاب الكتب ونركض نحو العربات متظاهرون عين لمساعدة النساء في حمل الحقائب، أو حمل الأطفال.. ثم نظل نتنقل من عربة إلى أخرى طوال فترة استراحة القطارين، كناية في فترة من اعتناقنا نتنقل من زهرة إلى زهرة، في محاولة للتعرف بالمسافرات من البنات ممتنع أنظرنا بوجه الحسناوات الناضجات التي نختزنها في الذاكرة لتعادل النظر إليها بعين المخايل عندما يلتحم الجوع الجنسي إلى الاستئنان.. ومحطة السماوة مشهورة لأنقران اسمها بقطار الموت، تلك القطار الذي يحيط بالسجناء قفلهم إلى سجن نقرة المسلمين أثر فشل ثورة (3 تموز 1963) المعروفة بثورة حسن سعيد. كان قطاراً مخصصاً لنقل البضائع، وقد طلي سقف عرباته بالفخار لإيوال أكبر كمية من حرارة شمس تمور المحرقة إلى داخل العربات.. كما طلبوا السلطات من سائقه السير ببطء.. كان الهدف هو القضاء على السجناء عطشاً، واختناقًا، وبطريقة تظهر وكان موتها كان نتيجة حادث عرضي.. ولكن سائق القطار، المواطن البسيط عرف أمر ما يحمله القطار من بشاعة، فأسرع بالتسير، حتى إذا وصل القطار إلى محطة السماوة ظهراً.. كان أهالي السماوة الذين علموا بأمره ينتظرون له همجموا عليه وكسروا الأقفال، وفتحوا أبواب العربات ليوصلا الماء واللبن والطحين إلى السجناء الذين قضى بعضهم، وشارف البعض الآخر على الموت، وقد نص رجال شرطة المحطة المطرف عما يجري بعد أن غصت المحطة بأهالي السماوة الذين أغلقوا خطة الحكومة في إعدام السجناء.. أغضب عيني لأنيم الاحتفاظ بصورة المحطة.

وفي المودعين كلهم تتعاقب عقارب الساعات، والدقائق عند الرقم (12) حيث يلتقي القطاران مرة عند انتصاف النهار، ومرة عند انتصاف الليل.. أذكر الآن ليالي العصر الذي كانت الناضحة بالبساطة والحب والآمن.. تلك الليالي التي أسلستنا ثياب السعادة واللقاء التي لوتها فيما بعد أكل الطغاء، وشركتها نصال الحسروب.. أين قراني؟ ولذلك الطلاق، وشركتها في ليالي المحطة.. أين عادل الذي دفنته سواتر الحجابات؟ وصباح الذي مزقته سرقة دبابيس؟ وفصل الذي أدى في الأرض الحرام؟ ومجيد الذي ضاع في بلاد الغربة؟ قتل الذي قتل، وضاع الذي ضاع، وتغير الذي تغير.. استحضر الآن ليلة من ليالي المحطة، نحن مجموعة من الطلاب الفقراء، نقرأ دروس الغد تحت أضواءها الساطعة.. حيث يقعق قاطع التذاكر في شباكه مغالياً للعناء، ويبدو لنا وجهه بشاريء السنبلاني، وقبعته الرفقاء كقصورة ملصقة على الحائط.. أما ذلك الدين الذي يحشر شحمة ولحمه في دشداشة بيضاء، فهو يلائمه الفات والعصير، وهو يروج ويحيطه موزعاً تعليماته مهيناً صناعه لاستثنائه.. وذلك الشرطي العجوز الخافر الذي لم يعد يخف أحد، فهو الممثل الوحيد للسلطنة في ليل المحطة، يترك المفروض خارج غرفة الشرطة ويطلق الباب ريماسع الأغانى من الرadio، أو لأخذ قسط من الراحة.. وتلك هي الخيوط الصاففات، خيوط الربات المنظرأة أيام المحطة.. وقد تجمع الحسروين ليدخنو ويترثروا في مواضع لا تنتهي أسمار العقل، وأحوال الخلو، وربما يحتسون شيئاً من الحرمة الخبيصة.. عقرباً ساعة المحطة المطلة كعین كبيرة تدبى ببطء نحو الرقم (12) حيث مستنقع معلنة انتصاف الليل وهو موعد الققاء القطارين الصاعد من الجنوب إلى بغداد، والنازل منها نحو البصرة.. يحين الموعد، تدق الساعة، يسمع صفير قادم من جهة الشمال والجنوب.. ينقض قاطع التذاكر مثل طير بلبل، بطرق الشرطي بباب المفوض، يسود الهرج مطعم المحطة، ينقض جمع المودعين، يتبعها المسافرون، يتوقف لهات القطارين وهم يدخلان المحطة،



عربة الذاكرة... تجرّها تماثيل المدن
مقابسات شارع الحبوب في استنطاق المكان

محمد ثامر الريدي

حكايات السرود

الذاكرة فاكهة شهية... بعض من نفحة آدم وغوايتها، معلقة في السقف، متاخرة ومتارجحة براحتها اللذينة، عبوة معنقة ومحكمة الإلzug، مرة تسيل منها الحكايات مثلاً يسيل التببس من التمر أيام كيسه في - حينان علوي السيف - بكسر السين وواحة الساسين أو بباب الشطرة، ومرة أخرى انقطع ملعقتها برفق وأسئلته منها ما هو مغایر ومشاكى لقراءة مكانة جديدة تحمل في طياتها المعانى المشفرة ودشتها، في تشريح سحرى تخرج منه راححة الخلق، النص والمكان، الذاكرة والحلم، المغزل وبخت الصوف، التمرة والنواة، الملعقة والإباء... تجربة تحمل في طياتها المغافرة والجلدة.

لبنة وأخرى لبني المدن وتنشق الشوارع وتنتصب البيوت. تتوتر النواذ حالم صبياناً يلوحون إلى شباب سيقاوا على تدور الحروب وهم يهرونون نصف عرايا ازدواجاً ساطعين حجم آفة الحروب، يمهمون باسهم وطن لم يعد يطيق ذلك أكراهه، وترتكن الأسر في محكبات الغرف لترتفش الأحلام، حلاماً بعد حلم، قيلاً بعد قبيل، وفقيداً ثالث آخر قد اسقط من القوة والقدر غلبة، ثم تسير على حافة الضفاف الطينية، عابرًا إلى (ذاك الصوب) من المدينة. حلاماً بعد حلم، تبحث عن قراءة تستغل على إحياء الذكرى الأولى للهائم العائد والزوايا المتروكة من متن حكايات الأولين وشخوصها الذين عاشوا حياتهم بارتباك وفوضى عارمتين، حتى مجيئناحن نحن كتبة ومورخى الآثار لنسجل وقائعهم وفوضى حواتهم المريرة.

لم تكن المسألة طرفاً محاباً في ذكرة الوجه الجنوبي، الجنوب: نحبه لوطني الروح الطيرية في أوصاله، ونكره فيه بغاره الذي غطي أسرار حكايات الأولين، طوال السنين التي حفرت أحاديذ متن الحكاية العجيبة عن متنه البروز والاختفاء تحت حجب العبراء الكونكرينية لنصب الشاعر الشاهد المتنقى، الشاعر الذي أتعبه قتال الشعيبة ضد قوات الغزو الإنكليزي وأنتعبه أكثر وقع المزيمة. زحفت عليه أخطبوطيات المرض وأقعدته لتصيب الفراش ثم الموت في مفارقات الناصرية، في بيت العضاض.

يشتغى العالم المجاد الجليل إلى النجف ويدفن هناك... شمة رجل شهير يدعى شاكر الغرباوي من سرودية التاريخ ينفع في الروح بفكرة إقامة نصب للمجاد الحبوبى وسط ميدان المدينة، إذ كان سرودي التاريخ

الناصرية شبه مدينة أو أقل من ذلك في الواقع العين المجردة، وقلبها شارع الحبوبى شبه ساكن أو أقل من ذلك في الواقع العين ذاتها. غير أنها فاعلة ومؤسستة في الحكى المحبوب، في الإنصات، في القص المنسوج، في الاستماع، من خوض نفلة القنطرار او الاستعمران او الخضرية العصيطة او السخر... منسوجة من ليل الغرافة، في الأسطورة المستوحاة من جذور المدينة، إنها مدينة الحكايات، أهلها لا يحبون غير الحكايات الطولة، لا يريدون من الدنيا غير حكاياته لما معنى من سر الفحيمية... تسابيوا الكلام أباطرة مقلسون على تقوت المقاهى ودبقة الذي يحيي العانى إلى روز لا تغادر الذاكرة. تراهم جالسين متذكرين في المضائق القصبية يقصون ما تيسر من الحكايا القاذمة في ليل يموسهة نقيق الصداع وعواء كلاب مسلولة. قعن ثم قعن لا آخر السوط، حكاياته تلدهم المدينة ليهربوا شباناً يعبر الورد ويعودون سيوخاً يظهر مقوسة، يقصون بطولات غيرهم بالفعال ولهمة.. غضاً أولادهم بأفواه مفقرة على البساط المنسوج من سوف الغراف او من الغرق البالية او سعف التغيل. حالين بشارع طبول ومدينة تقطر مسلاً يضفر جدائها سندباد جوال رمى في نهر المفرات مفتاح قلبها السرى او أضاءه في مجازات اور العتيقة.

محامياً ومن ثم مدير البلدية الناصرية، وفعلاً نفذت الفكرة بسرعه اعتبرها من اعرضاً وترتفع قامة الحبوبي في سماء المدينة شاهداً حياً على ما حلّ من خراب قبيله وما بعده.

لارفق في رائحة المكان بين شارع الحبوبي او شارع الهوى، فهما تسميتان لمكان واحد. إذ تختفي تسمية الهوى او كذا يدعى من ذاكرة المدينة، لتبرز التسمية الثانية بدلاً عنها، برغم افتقار تسمية شارع الهوى بتسميات مقاربة، في تلك باريس هناك شارع خلفي فريد بسحره يمتدلي فيه العشاق صهوة الجود الطائر، وقت الغروب الباريسي سميَّ شارع العشاق، وفي قلب بروكسل تلك شارع لا يشبه شارع الهوى الجنوبي إلا بالتشميمية. يتأمل الرعيل الأول من الحكوائية "وكلم قد احالتهم إدارة الجيش القديم على التقاعد، بعد أن استعادت أسنانهم الأمامية كذلك من هياكلهم الخاوية"، وهو يلوكون ما تبقى من العمر قصماً ومحابيات عن معارك الشعيبة وبن الذبيان وحصار الكوت وحرب باهيزه والهولان وحرب الـ "1948" وحروب الشمال. القصص التي تؤسطر فعل الحرب وشخوصها بآن تجعل مذاقها مرًا كالالمقام، والتي لا تنتبه قصص الحرب اللاحقة وقد تحصلت تحت لهيب النار، إذ تق�폴ت الثيمة واقتضي من الحكاية، ذلك كان حافزاً قرياً لنورة المحدثين الجدد في تذكير السرديةات الكبرى في معارك المصير المحتم، لتعلق اللاقفان الحاسمية من عمامه الحبوبي إلى يده او عكاذه واشكيل بحبال الحماسة المفرطة وسر عاطفة جارة عجز الدكتور علي الوردي عن فك لغزها، كانت إيقاعاً جارفاً للحطاطين بعنابة الحبوبي وهي يهمس في آذان الصافر أن تهرب إلى دنيا بعيدة.

ثم مجيئنا للنحوة نص الحكاية من جديد برغم تخييط أقدامنا في وحل منازعات والتباينات جانبية قد شملتنا عن مبنينا في هامش الحرب بأغانيها ويفساعتها الراسصة، إذ كانت الحماسة سر فجيعتنا... "كان يترجل من قاعدة النصب في أوقات صبيحة الانتـ بالـ مدينة" سخونة الحكايات تخرج من الكم العريض لعياتهـ أطلقتها الحكوائية من دون وجـ في عهود مضـ على غير عادتهـ قد لازمهـ في الفتراتـ التي توـوا على سرد قصة النصب الذي ترجلـ من مكانـهـ.

حكـائية استـ كانوا لـقـاعـ المـارـةـ منـ نـاسـ المـدـيـنةـ بـتـرـجـلـ التـقـمـالـ منـ قـاعـتهـ وـرـصـوـلـهـ حـافـةـ الفـراتـ لـغـتـسـلـ منهـ ولـيـتوـضـأـ مـلـصـلاـ مـقـبـلـةـ،ـ عـادـاـ عـندـ الفـجرـ إـلـيـ مـكـانـهـ فوقـ

تمثال الحبوبي الذي يتوسط الناصرية





جسر الناصرية في عام 1930م

في الليل كان رجل بعامة برونزية هائلة وجسم ضخم وعكار طويل، يقول الحكواتية هو الذي أوقف تدفق المياه الغزيرة الهادرة، إذ أومأ للماء الأجاج أن توقف، ثم عاد إلى مكانه عند الفجر. وبخت شطر حكايته: صلوا على النبي). بذلك قد كذب الحكواتية الجدد أسلاقهم متقدعي الجيش مسببين لهم الحرج في حكاية الجن وآثياب الجن والعرافة وقطع الكونكريت ولبط القصب التي أوقفت تدفق المياه، إذ كان تدفق القصص والنسابيك المرويات تحول الجناليين إلى آذان التلقى الممزوج بالدهشة.

اما المرة الأخرى التي ترجل فيها السيد الجليل من مكانه هي عندما هاجم الجن المدينة. حيث استتر المنتقضون لفترة ساعتين. نزل ليفتح منفذ الماء، وبخرهم من المدينة. والثلاثة عند اشتداد الحصار على المدينة ومحاولة السراق سرقة مكازه النحاسى. وهذا يكتفي الحكواتي بمرورية ما ينقي من الحالية العجيبة غير مبال بتكتيب الناس له أو تصديق ما قيل.

بووجه أهل المدينة كلهم، غير أن الجن وأثياب الجن وعمالاً مأمورين وشيوخاً عراقيين يسلّدو فيضانات نهر "أبو جالحة". صدوا الفوضان قبل اجتياحه المدينة، بعد أن عملوا الليل كله لتكتيف ضفة النهر المنهارة بكل الكونكريت الضخمة التي نقلتها الطائرات إلى مكان "الطيرية" وأكياس التراب وحصران القصص واللبيط التي نصح العرافون باستخدامها قرب الـ "بو فياض" والزعيالت خوفاً على مضيق آلة كريج الذي طوقته مياه الفرات. على أن مشهد خزانات الملابس الخشبية، لم يكن مشهداً مبكراً من وحي مخيالة الرعب الأول للحكواتية، خزانات الملابس الخشبية، طافت وتتجول خارج السرب مع الأباريق وأواني الطبخ والطسوت، وكانت عوائق منطقة الاسكان الصناعي تجلس فوق السطوح تؤمئ لقوافل الإنقاذ بتلوك أكياس الطحين أسفل الدار. كان سرير نوم الزوجة طلاقها قرب الضفاف يحمل فتاتن الأحلام الساحرة مثل نجوم تومن على سطح مياه الغرين الفراتية وما زالت البذلة العسكرية معلقة داخل الخزانة تكافح الغرق.

ما رواه الكواكب

محاولة منه لترويض رؤوس عشائر المتنقق التي لم تطع لا ها طول حكم المسلمين الأتراك. كانت الصفقة مع شيخ المشائخ ناصر السعدون، او ما يسمى بناصر الأشقر كبير عشرات المتنقق، على أن يتولى هذا الأخير ولابنته من البطاطح المنخفضة والمحاذية لنهر الفرات حتى أوغر مصمم بجاوخي يدعى "جولس ثي" قد عمل جاهد المحاكاة مدينة أوروبية بشوارع سنية غير متلوبة وعرية ضبابياً تقطّع هندسيها في سرة الساحة التي ينتمي إليها العبوبي، حيث كان مبني سراي الحكومة على يساره، وفي إمتداد عكازه بيني مستشفى المدينة، وخلف ظهره قام قاعم سركينس (صراف الشيخ ناصر السعدون) ببناء السوق المغقوف ومجموعة محل ومقاهي، وبيني فالح ياشا السعدون من الأجر واللين والجص والتوره والطين وكذلك ببني سوق المدينة الكبير من القصب والبردي، ونمت مثل قضبة بربة محلة السويق وحاكتها محلات الجامع والسيف والسرابي، ثم بني دار الـ ماحانا لنهر الفرات، أمر الشيخ ناصر السعدون ببناء سور الطيني ليغزل المدينة عن سواها جاعلاتها أربعة أبواب وكيل ثلاثة هي باب الشطرة الذي ما زالت التسمية مسومة في شرق المدينة ثم باب سيدناوية وباب القلعة الذي قيّدنا أثره تحت ركام السنين وباب الزيدية نسبة لنزوح عشائر آل زيدان لم يرق الأمر إلى منصور السعدون،

الأخ الأكبر الناصر
السعدون في بناء
مدينة بهذا الحجم
ستضعف حنما
مشيخة المتنقق، إلا
أنه نزل عند رغبة
أخيه بشرط تغيير
مكانتها، وقد غير
بالفعل مكانتها غير
مرة وجعلها في قعر
منخفض محاذية
لنهر الفرات في
مكانتها الحالى،
يتحكم في إغراقها
وقت بشاء حين
تنتفع العشائر من
تنفيذ أوامر

الرمانة فاكهة شهية، ولكن ذاكرة الحروب سرقت المعنى منها وأحالتها إلى فاكهة بساقع لولي في قمة الظاهر حلقة مفرغة جاهزة للسحب في كل مكان وزمان، وإنهايتها الخفية إبرة دقيقة تستحب بناipesية فعالة، يقصد الديلمي في داخل الرمانة الحديدة لتحول بعد ثوان من الزمن جبيباتها الحمر الشهية إلى شظايا مسنة تنهى اللحم الطري وتمرقه بفك ثقب مقفرس تزيل اللحم المهووس عن العظم.

كيس الحكايات يحمله حكواتي العصر على ظهره من مكان إلى آخر. لا يتمثل ولا يكل طوال السنين التي عاشها. وفي فترة استراحة المحارب بين شوطين من مباريات الحروب التي لم تنته بعد - سيروري ما تسمح به السلطة متذرعاً بضيق الوقت وتتعسر المرد في ظروف غير مواتية، وستكون آليته مسلسلة بحلقات مثل مسبحة "داخل حسن"، لا تتوقف عن الدوران إلا بالتللاشي كما يتلاشى كل شيء في مدينة التراب الناعم والبشر والنخل والقصب ويقايا عمامات التماطل الطينية من أرض سومر.

كواكب التاريخ

يقول عبد الرزاق
الحسني وعباس
العزوي وشacker
الغربياوي وزاير
حسن والدكتور
علي الوردي وخنا
بطاطسو، وهو أعمدة
حڪرياتية تاريخ
المدينة وليس من
سروديتها، إن
مدحت ياشا عقد
صفقة سرية لولادة
قىصريمة لمدينة
أراد لها أن تختلف
كثيراً عن المدن
العراقية الأخرى،



آهوار الناصرية 1957

ذاكرة ما تبقى

قبالة نهر الفرات هناك شجرة صفصاف عملاقة قبيل أنها أقدم من المدينة بخمسين عاماً، مكثت تتنفس حتى وطأة تلك السنين زمان طويلاً وعششت كأنما تلتف على عدد أوراقها ما فات من تاريخ الحروب وما فاتم، لتشهد هجوم الآتراك على المدينة... ثم يبنون السراي الحكومي ويرفعون العلم الأحمر فوق إمامتها، ثم سوقاً يبنيها وخلفها، وبينون البيوت المطلة على النهر قريباً من تلك الشجرة، التي نسميها بصفصافة اليوم، لكنه دليل اليوم فوق هامتها وقت العصر والغروب وفي أول الليل. كذلك شهدت صفصافة اليوم هجوم الإنكليز في تموز سنة 1915، شهدت انقلابات وتوجهات الحركة السياسية في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وفي التسعينيات من القرن نفسه قضى نحبها حين أمر حاكم مدينة المسكري ومحافظها بإزالة الكثير من سمات شارع النهر ومسكرة ملامحه، تقدمت بهدفها المرعب ليشدوا جذب الصفصافة بحبل من ضفاف الأسلام الحديثة إلى مؤخرة الجرافة ثم يطلقون إشارة البدء للجرافة أن تتقدم، سحبت بدم بارد أيام اعين دامعة وصراخات مكتومة من أجيال الحكوائية الصغار، عيونهم تتمع لواداً صفصافة اليوم بعد سقوطها على أرض الواقع اليوم الوديع وهديله يطرد شبح أشباح المعركة، ومنذ ذلك التاريخ اختفى صوت هديل اليوم وغناء النهر وأطواره الزرية، ولي sis سوى مهمات الغزن المكونة تحرك الرأس الكبير للتمثال يميناً وشمالاً.

على خارطة المدينة ثلاثة خطوط لا تلتقي أبداً مما تقارب أو تباعد، هما نهر الفرات وشارع الحلوبي وشطيط، يقابلهما محطة قطار اور، قيلولة القطر الصاعد نحو بغداد. الفرات والحلوبي وشطيط ثلاثة أمكانه لزمن واحد يفتح نافذة صغيرة على سر الك شخصون المكان ولا ملامح شاشة لهم تدل على برسومهم... إذ أن المدينة لم تنتف على الشخصون من غير الأمكانة لملامحها الخاصة، وهذا يعود للطبيعة الصحراوية للمكان، ولل اختيار المقتصد لمحدث بشاشة... فالناصرية مدينة تاصرها الصحراء من ثلاث جهات، وذلك التيه الصحراوي يواجهها مثل حيوان مفترس، إذ مسحت الصحراء أخاذيد وملامح روح

تنفيذ أوامر المشيخة، ولكن الأمور داتماً تجري بما لا تشتهي السفن، فقد تحاول الوالي الكبير في بغداد بعد أن عمل على تقوية السدود في الخفاء وافق على مخطط مكان المدينة المقترن من الشیخ ناصر السعدون، وأفشل مكيدة هدم القصر حين أبلغ الشیخ ناصر السعدون عبه

مسعود بحيلة

إغراق المدينة

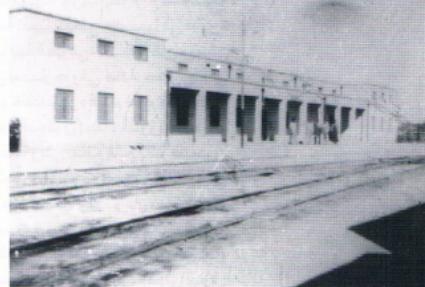
المفتقر بالرسالة

السرية التي يحملها

مسعود شفافها ليتم

هدم القصر بدلاً من

إغراق المدينة.



يقول علي الشرقي

في تاريخ عشرات

المنتقى: إن بناء

مدينة الناصرية

كان حيلة ذكية

للإطاحة بإمارة آل

سعدون في جيب

الجنوب المهالك،

على الرغم من أن

بناء المدينة كان في

ظاهره وجه السعد

لمشائر المنتقى

حيث السلمة الأولى

في سلام الرقي

والترف، غير أن

هذا الترف ضرب

بإعصاره العتيق

آخر ما يتقى من

الإمارة السعودية

التي تحكمت أواصر

قوتها وتحللت عشراتها عن تقاليد البداويم فتركوا الخيام

والاباعر وزرحاً أفلجاً ناحواً المدينة لينعموا بـ

الحمامات الجديدة وغرف النوم الجميلة والمراحيل

المقفلة ولعب الدورمين على تختوت المقامات طوال

النهار والليل، ولا طاعة للشيخ أو الأمير بعد اليوم..

وبذلك نجحت أولى فقرات الخطبة العثمانية في

الاستئلة وتفكيك الإمارة السعودية.



أربعينيات الناصرية



شارع البوى او الحبوى

جريدة تجمع شباب صوب الجزيرة. خلف الساحة تقع حفلاً مبردة في عز البرد لنقل كل شخص أشر عليه المشخصات الماثلون من أبناء المدينة الذين ارتكروا لأنفسهم تأشير معظم الجالسين. مع كل إشارة يحتضن الشخص -فتح الخاء- مع الركل والضرب إلى الحفلاة ليحضر في داخلها. كنت تقترب فاصنم أفراج المفترضين في ساحة الاحتفالات، انظر إلى الوجه المتبعة من العرب والخوف والجوع والإيادة، كانت مصفرة خالية من جريان الدم في عروقها في الصف السادس أو السابعة وصلنا المشخص متعمداً من تلك العملية الطويلة التي استمرت إلى أول الليل وعلى وجه المصباح اليدوي أكمل مشوار الإشارة بسيابته اللينة التي راح ضحيتها المئات وبالقرب مني أشار على شخص كبير السن: عد الغني؟ تلقفه الأيدي الأمنية بسرعة البرق ولم يكمل عبارته. ثم صاح بهم: - أنه صديقي فقط استنصر عن حالته وهو لم يشارك.

وجازية المكان. كلما ذهب أهل الناصرية إلى التقدن والتحضر، أعادتهم الصحراة قسراً نحو هامبة الملحق. البصرية ذات ملامح واضحة يستطيع المترفّن تشخيصها من النظرة الأولى، وكذلك الموصلي والبغدادي أليسهم المكان دثاره المتفرد. يعكس شخصية ابن الناصرية الذي ظل من غير دثار يهد به قسوة الصحراة وتخيط ريعها المقنة لمسح آثار المكان منبني مالك الأكثر تعداداً إلى أهود. غير أن القبس ترك أثراً عميقاً لسكان المستنقعات تستطيع الفرز الشخصية رجل الأهوار بملامح تناكي أهل سومر، وجوه التناول السومورية تترافق على ملامح أهل الهور وهي منفردة ساحتها من أهل المدينة، ذلك اختصار اللون الفي ينبع في عنمة الوجوه - حبادية الإيماء. أما أرض سومر فقد انقطع اتصال الهافت السري معها بعد مجموعة الطوفانات المتعاقبة التي أضاعت سيلوها ملامح الطين المرسمة على الوجوه وقطلت الوجوه تتسير في الفراغ وتحاكي لوحات دي لاكروا "وجوه بلون التراب كوميماءات متحجرة". هكذا، من غير قاسم مشترك حالهم حال ولادة المدن على كف عفريت. مما دفع قوات الأمن الخاص ذو الكوفيات الحمر والقامات القفارعة، القادمين لقمع الانتفاضة والقبض على ما تبقى من المتنقضين بالاستناد إلى أساس من أهل المدينة لتمييز الشخوص المشاركة من غيرها. تحولت المدينة إلى ساحتين، ساحة الاحتفالات الرئيسية في صوب الشامية ساحة تجمع لشباب "ذاك الصوب"

الاسيجه القصبيه الدائمه.

كان ليل الفرات في صيف الخمسينيات أشهى بليل مدينة ساحلية يعجّ بالاصناف البشرية وحياة ليلية متعددة المشارب والهوابات، السمك المشوي، وأطوار الغلاء، والسلواد، السياسية والفكريّة، وجلسات السمر وأفلام السينما الصامتة لشاري شابلن في المسينما الصيفية، وخصوصيات ورقص وبكاء السكارى وجملات الوجه والعدم وفانض القـيـمة ومويجات العشق الشفيف المغمض بالشعر وأحلام السعادة مع نسيمات الليل على الضفاف والسباحة الليلية لأذقاء حملة الشرقية والسيف وقرية فرحان الذين تهيزهم من الوشم الظاهر على زنددهم بعيارات "اخ نوريه، الحبيب عذاب، ماكو وف، ابتدع ميلاً... وفي احسن



الناصرية القديمة

مات عبد الغني في المرة الأولى ثم أحياه الشخص بلمح البصر، هكذا... شطيط نهر المياه الأسنة، يحاذى المدينة في شمالها وهو حد الفصل للمدينة الجديدة، أما خلفه فلا يثر للبناء أو الشوارع الاستثنائية الحديثة أو أعمدة الإداره الليبية أو قناني البيسي كولا. الفرات الذي كان يطغى بالغربين الأحرار، بمرأبه التي تنقل حبوب الحنطة والتمر من إلى الناصرية، ورانحة الغناء ما زالت شاهضة على الضفاف. الغناء يترك آثاره على الصناف، هنا يقايا آثار وهناك رانحة الآلين. هنا كان يطوح حاضيري أبو عزيز بكلمات أغنية الجديدة "هذي قسمتي من الله يا حادي"، أما داخل حسن "الشرطي المستجد" مكان يسمعه الصوت الشجي من الضفة الأخرى للنهر "يا حاضيري بطل النوح" مغصبا بذلك المطرد الصاعد والذي يحاول استئناله "الكرافة" في طوره الجديد المبتكر بحجة الصوت المتكسر وفرق الميسحة الصفراء و... لا لا لا... لا لا لا... آية يا ويلاه" أما حاضيري حسن باعه اللين فقد نأى بنفسه بعيدا عن هاتين القفتين، وراح يغنى للسكارى والمكلومين والمعدندين في أتون عشق

الأحوال قلوب بائمة. وستمر الليل في كرنفال الفرج، ينبعج الصبح ل تمام الحال وتنسيت المدينة. في الصباح تقل الحركة وتخلو الشوارع إلا من الموظفين وعمال البلدية وحملي السوق، وحالاته المعيدات من مراكب النهر إلى "الاستهلاك" علىة الخضر اوات والحبوب وأكياس التمر والبطاطس والقادمات من الإهوار ومن سدنياوية ومن مشانق أخرى متفرقة، فهن حمالات في موسم البطاطس صيفاً، ونيسانيات على ظهر المراكب يجنن مزارع الحنطة والشعير لتجميلها على ظهر المراكب. وفي تشرين او كانون تيسانيات لقص الثلب وتبيشة على ظهر المراكب في طريقه لمواقع التسويق الرئيسية في الناصرية او البصرة. اما في ايلول فيذهبين الطوشات لقص النخل وجمع التمر وكبسه وعزل الحشف والديرى مقابل حصة من التمر مقايضة عن مجهدومن المعنى لموسم القصاصن. أما غير ذلك فتشتبث المدينة بانتظار ليلة أخرى.

يعيدا عن ضفة النهر كان شارع الحبوي، الأنف المستدق الجميل في وجه المدينة الأسم، عباءة تعلم لساز الارتفاعين كرجل وظله.

فخذلها لا ترتوي من مائه، بل تشرب من فرع الغراف العذب - الغراف فرع من دجلة - غرباً ما يتحولون بعد حفنة سنين موطنين أصلاء، وإنما ها ينحررون نحو أرض الله الواسعة.

الساحة والجبوبي من يسيق من؟ في متالية الوجود والانصهار، متالية الظهور والاختفاء، متالية الخوف من شبح رجال السلطة والتحدي في سنواته الأخيرة. كانت الساحة رسماً يخطوته هندسية على ورقة فلكس مطوية بيد "جولس ثال" المهندس الشقر ذي القبعة التقليدية العريضة الذي انقطع أثره بعد تصميمه وإشرافه على مخطط المدينة، وتسلكه الشوارع الطويلة، على الرغم من أن الجبوبي جاء إلى الناصرية بعد اثناء السلحة، وعاش ما تبقى من حياته في المدينة. إلا أنها متساكن كأنهما صنوان.

كل الشهود يتعرضون وذاكthem الزوال بعد مرور السنين. لم يتبق غير الجبوبي محظوظاً بتفاصيل تقاطر المنشآت. جساماً عن قابل دام لأيام تحت عهده في الانقضاضة آذار بعد هزيمة الجيش الشهير في العام 1991. لم يكن هناك شهود على قيد الحياة، يوم كانت ساحة التمثال تشهد تراشقًا بين المتضيدين وقوات الجيش المتقدمة بكل سلاحها الفتاك وطارتها ذات الأجنحة الثابتة - التي سمع باستخدامها الرئيس الأمريكي آنذاك، لإيادة الثوار الذين أثروا شجاعة منقطعة قرب التمثال. كانت جياعته الكوتوكرينية سائراً يستهمي الثوار خلفه ويطلقون النار على قوات الحرس الخاص - اللواء الرابع - المندفع لنصفية المدينة. دمعت عيونه عندما انسحب الثوار رثة شططاً قد أصابت جسده في الصدر وفي القدم وفي كتفه. أحد جنود الحرس الخاص وجه قاذفته صوب صدر التمثال بعد أن لاح بالسؤال للضابط المرافق لحملة الانقضاض - من هذا يا سيدي؟ - لا أعرف وبيدو عليه انه تمثال قد تم لم يفهمه المنقضضون، اتركه وحاله.

بها جسدها النابض بالحياة. عصرًا يبدأ مهرجان الفرج الغوري في الساحة المستبردة التي وجدت قبل أن يوجد التمثال. الساحة والجبوبي تعانقان منذ سبعينيات القرن الماضي، قد كانا شاهدين على قصف الطائرات، والاحتلالات الكردانية لنهاية الحرب الماراثونية. رقص الجنود والهاربون من الحرب والنساء العجائز، إلا النساء الأربع فقد انزروهن في الساحة المقابلة للتمثال وسقطت دموعهن متعددة بدموع كبيرة يقدر بحيرة تفتح لها طرقاً بين الجموع، ثم تذهب الدمعة الكبيرة عبر شارع النيل إلى نهر الفرات ليغسل ويطعم الشطوط والملاحم ليغدو طوال الدهر المتبقي مالحا. الساحة والتمثال ما زالا متساكن كرجل وظله.

لا غرابة في نقصان كثافة التمثال ضمن فضاء المدينة، وذلك مردجه عدم ثباته وتوتيره الموجودات. إن عوامل التصدع والتآكل في الفضاء المفتقر ممكنة التقبيل ومنطقية الحدوث، وهذا مردجه للعامل الجفرافية وتقلبات الجو ودخان الحروب وبرازها، فالنصب ليس بسموبياء في مكان معزول عن تلك العوامل، فقد اضمحلت كثافة التمثال في الثلاثين سنة الماضية ما يقارب ثلاثة سنتين، وبعد مائة عام سبق بمقدار عشر سنتين، أن النقصان هو النقصان، والزوال حاصل بهذه العوامل أو ضباب عليها مزاج السلطات الحاكمة التي تحاول يوماً ما إزاله النصب من مكانه لأغراض مد شبكية المترب من بارييس إلى حمراء المنافق، أو لصلاح منظومة المياه التقليدية التي تمر تحت قاعدة التمثال، وقد حدث فعلان الحكم العسكري للمدينة قد قرر إزالته.

الجبوبي من ميدان المدينة مدعياً إن الرجل ليس من ابنائها، وهناك رموز أكثر أهمية منه، إلا أن الفكرة ولدت مبنية على عدم استجابة الحاشية.

الناصرية وهي التاريخية الحديثة تتسمى للغرابة أكثر ما تتسمى للواقع البسيط. يمر الفرات بين

